
إحياء فقه الدعوة
عبير الوعي
محمد أحمد الراشد

مقدمة

□□ كل كتاب في سلسلة إحياء فقه الدعوة له وظيفته، و له مغزى خاص، بحيث إما أن يؤسس معنى جديداً في فقه الدعوى يكمل المعاني الأخرى، و إما أن يزيد شروح معانٍ تقدمت في كتب أخرى و يورد لها من الشواهد ما يهبها قدرة إقناع أخرى.

● فالمعنى التأسيسي للدعوة، و أدلة وجوبها: كفَلَه "المنطلق".

● و المنحى التربوي الذي يتولى تزكية القلوب و إحلال الأخلاق الإيماني فيها: ردَدَته فصول "الرقائق" و "العوائق" و "تهذيب مدارج السالكين" و رسائل "مواعظ داعية" التي نحرص على استئناف إصدارها قريباً بإذن الله.

● و مذهب فقه الدعوة يحتاج التأصيل و إرجاع قضايانا المعاصرة كلها إلى قول السلف و أجيال فقهاء القرون الأولى، فكان "أصول الإفتاء و الاجتهاد في نظريات فقه الدعوة" مرصوداً لهذه المهمة، و أتمها بوفاء و الحمد لله.

● و فقه التخطيط الدعوي و الإسلامي العام تعاضدت على توفيره كتب "المسار" و "رؤى تخطيطية" و "منهج التربية الدعوية" و بعض رسائل العين.

● و اعتنت رسائل أخرى في سلسلة "العين" بقضية التطوير و التدريب.

● و كشف : "الفقه اللاهب" عن توافق الفكر السياسي الدعوي المعاصر مع اجتهادات إمام الحرمين الجويني.

● و تولى "تهذيب شرح ابن أبي العز للطحاوية" إيضاح حدود العقيدة السنية للدعاة.

● ثم وَصَفَتْ "بوارق العراق" أخبار الجهاد المعاصر، و فقه الجهاد في عالم معقد.

● و لما حَصَلَ هذا التكامل و استتب، و برزت بوضوح مكونات الشمول الدعوي الذي هو أقوى عوامل نجاح الدعوة المعاصرة: كان لابد من الذهاب إلى مدى أبعد، بإنزال التجارب الدعوية و الحضارية و المعاني المعرفية و التوجهات

المدنية و الإدارية و الإبداعية على الواقع، و التماس طريق محدد للتطوير التنموي و السياسي و الاجتماعي، و طرح حلول لتعقيدات الزمن المعاصر، و لنشاط الدعوة في عالم متنافس، و برؤى عريضة شمولية تكافئ انتقال الدعوة الإسلامية إلى امتدادها العالمي، فكانت سلسلة "استراتيجيات الحركة الحيوية" التي مازال إصدارها يتوالى هي الإطار الرحب الذي يذهب إلى هذا المدى من التخطيط المتقدم و الصناعة القيادية الطموحة التي يراد لها أن تزاحم و تزيح، و "سبائك السُبكي" خطوة تفصيلية في الخارطة الإصلاحية.

● و بهذا يكون ورود "عبير الوعي" وروداً مسترسلاً منسجماً مع جميع هذه المقاصد الجزئية التي تكامل بها مذهب فقه الدعوة، فهو انعطاف مهمته تذكير الدعاة المتوغلين في درب السياسة، و الدعاة الذين يجاهدون، و الرهط الذي يساير العمل المؤسسي و النشاط الإعلامي: بأن بلوغ هذه الأعماق ينحت و لا بد من رصيد القلوب، و أن "التربية" وظيفة دائمة في الأداء الدعوي، لا ينبغي أن ينساها أحد، و لا يتكبر عليها واهم، و هي عند كثافة الانشغال بيوميات السياسة و التنمية و الجهاد أشد لزوماً من أيام النشأة و العزلة، و لا بد من تصحيح النوايا و موعظة النفس و الانطلاق من عند ركن المحاريب إلى أداء الخطط المتقدمة.

● فالكتاب تجديد للمفهوم التربوي، و إعادة توصية به، و حشد من جزئيات المنطق الدعوي التجريبي المختلط بما يعادله من إلهامات جاشت في أفئدة السلف فنطقوا بها شعراً و نثراً يعظون الخَلَف.

● ثم في الكتاب استعلاء على وسوسة تطرأ عند التزيف و الجروح، و تحليق مع الهمم السامية في زمن تريد بنا المادة أن نلبث عند القعر الواطي.

● و من الراشد لصانع الحياة، و من يحركها، و للصاعدين، و المبدعين: تحية □□

١ رُواق الخيال الإيماني

●● إحياء فقه الدعوة كتلة من الفكر المتقدم الذي يهتم بالتركيز على قضية تطوير الداعية، و البلوغ بالعمل الدعوي إلى أقصى حدود الأوصاف المنهجية. و انطلاقاً من قاعدة التكيف النسبي في سد الحاجات و مراعاة الظروف: تعددت وسائل هذا التطوير المنهجي، و تتابعت محاولاته، و امتدت زماناً و مكاناً، و كان مشروع مجلة العين حلقة في سلسلة ارتياد الأحسن و الدلالة على مكامن الأصالة و فرص الإبداع، و أدّت المجلة واجبها بنجاح أغرى بمواصلة إصدارها، و هذه المقالة إنما كانت مقدمة لمحاولة استمرار المجلة في طورها الثاني الذي أريد له أن يوازي الروح الجهادية التي عمّت بعد الرفض الإيماني للاحتلال الأمريكي وسطوة العولمة، و لكن فحوى المقالة نراها أشمل و أبعد في الإفصاح عن فقه التطوير و منطقه و شواهده كيفما كان و أينما نحاول تطبيقه، و لذلك استعيرت المقالة إلى كتاب عبير الوعي لوفائها بالمراد، ولانسجامها مع بقية المعاني التي نحرص على أن تكون شغل المستدركين و الصاعدين من الدعاة في كل البلاد، فهي تخصيص يمكن تعميمه و إيراده كمثال للتصور الناجح للهدف التطويري و وسائله وآفاقه، و كأنها ميثاق كل رهط يتعاهد على الارتفاع بمستوياته الفكرية النظرية من أجل إتقان نقلاته العملية التطبيقية، و تتيح المناسبة إعادة نشر هذا الميثاق في وقت تتوافق فيه الأقدار مع نوايا متنامية تحدونا إلى استئناف إصدار العين و اجتيازها حدودها العراقية إلى سعة الامتداد الدعوي العالمي و قبول مشاركات الوعاة و المجربين أجمعين، و كان ضمور التوزيع للعدد الذي وردت فيه هذه المقالة بسبب اشتداد المحنة و الأيام العصيبة في العراق أثناء الاحتلال مسوّغاً إضافياً يرجّح تأويلات إيداعها مدونات إحياء فقه الدعوة ثانية.□

□□ في السلوك المعنوي النفسي الإنساني ظواهر لو وقفت عندها متأملاً لمنحتك أنواعاً من العبَر. ولوجدتَ فيها بعض أسرار النفس. فكل الدعاء ينقص عن مقدار التمام. مثلاً. غير دعاء المضطر الذي حوصر فحاول فاستنفد طاقته فبلغ قلبه الحنجرة. فإنه يتحول إلى ضراعة من الأعماق، ويكون صاحبه في أشد اليقين وأكمل الإيمان تلك الساعة، ويجأر متجرداً. وكذا شجاعة الشجاع تبقى مثلومة، ويعتريها إبطاء مهما استدعاها وأبدى حثّاً واستنفاراً، إلا في موطن الدفاع عن العرض والأهل والولد. فإنها تتضاعف، وقد تفجأ الرعديدَ بعض المناضلة ويكتشف الناس فيه بقية من حماسة ما كانوا يعلمونها. فكذلك (الفكر):

لا يحركه البطر، ولا تهتز أعماق العقل عندما يسود السكون، وإنما تحصل غفوة فكرية، أو ترهلات تنظيرية، أو قناعات تقليدية، ولكن (التحدي) هو عامل التحريك الذي يجعل (التأمل) شغل العاقل، ويستفز مكنونه الوصفي والقياسي، ويُطلق طاقته التحليلية، ثم التركيبية التي هي عكسها، فيفتأ متقلباً بين الحدّين والركنين حتى يجد لرأيه القُراب الذي يلبسه ويُصاغ في معادلة وقاعدة وميزان، كما يجد السيف قُرابه المناسب.

● وكما تختلف المواسم وتنتقل من برد زمهرير إلى صيف ساخن، وكما يُنضج الحرُّ اللاهبُ الرُطَب: فإن سخونة هيمنة العولمة نقلت الفكر الإسلامي العالمي العام إلى مرحلة نضوج ووضوح وتميُّز، بسبب التحدي الكبير واستيقاظ فطرة الدفاع عن النفس وعرض المؤمنين، ثم لأن هجمة العولمة تركزت على العراق وجعلته موضع أول قدم أميركي في خُطة السيطرة المتطورة على العالم الإسلامي: رجعت بغداد عاصمة للجهاد ورمزاً للعزة ومَدْرَجاً للاستعلاء، وصارت بيئة القضية العراقية رواقاً للحوار الفقهي، ونادياً لاكتشاف منطق السياسة الشرعية وأتاحت حرارة أشواق الأحرار بروز الاجتهاد المكافئ للحقائق الجديدة، والفكر الوسطي الذي يُزري على التطرفات الحادّة أو على التساهلات الحالمة.،

● وهذا هو الذي جعل استئناف إصدار (العين) كرّة أخرى في بغداد ضرورة، لتجيء على قَدَر، وتسير بموازاة الحاجة، فإنه يُراد لها أن تكون مجلة الفكر النخبوي الرفيع، والنقد القواعدي الملتزم، وفقه الدعوة الشمولي، وموطن عَرض التجارب التربوية الجماعية، وتأصيل المواقف وإسنادها إلى العرف الشرعي القديم، والتأكيد على الأنماط المنهجية واللمسات التخطيطية، والتوسل بضوابط الإدارة وتسهيلاتها، والاقتراب من مفجرات الإبداع وأساليب الابتكار، والانعطاف نحو الاستدراك على التقليد والارتجاع والرتابة والاستئسار للماضي، ثم الارتكاب الجريء للاجتهاد الملائم للظرف.

● والدعوة الإسلامية العراقية اليوم مؤهلة لأن تكون المحور الذي تنطلق منه وتدور حوله جميع هذه العملية الفكرية المستندة إلى ثوابت العقيدة وكتلة القواعد الشرعية وتراث الاجتهاد لسالف، لأنها تنتصب وتتصدى للتعريف بالفن القيادي في أشد النقاط سخونة، وفي بيئة كثف تعقيدها حتى أصبح يشمل كل ما توزع في الساحات الأخرى من أشكال الصراع، والمهادنات والتحالفات، ولابد للمتحاورين من دعاة الإسلام وهم يتبادلون الرأي من منبر، ونافذة إفصاح، ورواق إنضاج للخواطر، فاخترعنا (العين) لتكون هي الجامع والمفصل والرباط، ثم هي (الرَوْزَنة القادرية) التي أطلّ منها سلفنا رئيس دعاة الإسلام في بغداد الشيخ عبد القادر الكيلاني فرأى سفينته في بحر الأقدار، تتلاطمها الأمواج، فناحر أقدار الشر بقدر الخير، فنجا ورسى، وأقدار السوء في العراق في الزمن الأميركي كثيرة، وقَدَر التوحيد الشرعي السياسي هو وحده الذي يضمن مستقبل العراق، وقد عزم الدعاة على أن يعلّموا الناسَ الخير، صَنعةَ أبيهم إبراهيم وفِعاله في (أور) عاصمة العراق ذاك الوقت، فإنها ما زالت المنهج.

☐ الإيغالُ في الخيال يمنح الفكرَ الخصوبة

● وإذا كان الفكر الاجتهادي الإبداعي هو ما نقترحه للدعاة: فإن من تمام النصيحة أن نغريهم بممارسة التأمل الحر، والتوسع في الافتراض، وتكثير مداخل كل قضية ومخارجها وما بين ذلك من بدائل ومتماكنات، وتقليل الشروط الجازمة، ورفع القيود عند الابتداء واللجوء إلى استنباطها كاستدراكٍ عند الانتهاء، وقبول كل مداخلة طارئة والاقتناع باحتمال صوابها، وتغيير أنساق القِيَم تقديماً وتأخيراً، وتبديل المقادير التي تحتويها كل قيمة ورؤية أثرها في النتيجة، والتردد بين الوصفين العقلاني والعاطفي، فإن في ثنايا هذه التغيرات والحركات يكمن الصواب، والطريق إليه يكمن في تجريب النظر إلى الشيء من زوايا عديدة، وتلك هي آلية الوصول إلى الإبداع، ويجمع كل ذلك (الخيال) الواسع، فإنه أساس

الفكر إذا أراد التجدّد، والاجتهاد كله إنما تتضمنه عملية خيالية تتقدم على عملية الاستقرار على رأي يتطور إلى مبدأ، وهذه الفاعلية للخيال حقيقةٌ اكتشفها السلف واستقلبناها نحن الخلف بنوع شك وتخوّف، ومشينا معها على استحياء، إذ يتطلب الأمرُ يقيناً وجزماً وجرأة. وأما شاعر السف فيبشّر به:

لولا الخيال لكُنا اليومَ في عَدَم ... و لا انقضى غَرضٌ فينا و لا وطرُ
كأنّ سلطانها إن كنتَ تعقلها ... الشرع جاء به، والعقلُ والنظرُ
من الحروف لها كافِ الصفات فما ... تنفكُّ عن صورٍ إلاَّ أتت صُوَرُ

وقوله (كاف الصفات): بمعنى كافي الصفات، وحذفت الياء لضرورة الشعر، والأبيات ذكرها الفيروز آبادي، والشاعر إنما يتحمس للخيال هنا لأنه المعنى الذي يقرب للعقل الإيمان بالعقائد الغيبية، ولا يجعلها هذا الغرض المفيد نزهد به فيما سوى ذلك، بل هو المدخل أيضاً لتقريب الاجتهاد في الحلال والحرام وآثار الأحكام. مثال الأمر العقيدي: (عالَمُ البرزخ: معقول في نفسه، وليس إلا الخيالُ، فإنك إذا أدركته وكنت عاقلاً: تعلم أنك أدركتَ شيئاً وجودياً كأنك وقعَ بصرُك عليه، وتعلم قطعاً بدليل أنه ما ثمّ شيء أصلاً، فما هو هذا الذي أثبتَ له وجوديةً ونفيتها عنه في حال إثباتك إياها؟ فالخيال لا موجودٌ ولا معدومٌ، ولا معلومٌ ولا مجهولٌ، ولا منفي ولا مثبت)[1] أما الخيال الذي يستنبط حكم الحِلّ والحرمة: فأمره أظهر، لأنه يحوم حول محسوسات، من مصالح واستقراءات مقاصدية، ومجاله العملي لذلك أقرب.

● **فمن يزعم المشاركة في الصناعة الفكرية: يلزمه أن يُطلق لخيالاته العَنان، وأن يسبح في آفاق التصورات، وأن يقترب من المستحيل، حتى إذا قاربه: يرجع ناكصاً غير خسران، ثم أن يقتحم المجهول، ويتسور الأسوار، ويمشي في المجاهل شجاعاً كأنه يسير في الأسواق،** لأن الفكر إذا لم تسبق إليه طريفاً: بارَ وعافهُ الناس، والبواكير تستبد بالثّمَن، ثم عند الحصاد يكون الرخص. ولو رجعنا إلى

(١) المقام المطابة للمجد الفيروز آبادي ١/ ٨٦ والأبيات كذلك في ١/ ٨٥.

أبيات الشعر لظهر بوضوح أن الشاعر أدرك تماماً مكمن الأهمية عند اكتشافه القيمة التوليدية للخيال، فإنها في ملاحظته: ما تنفك عن صور إلاّ ويكون ورود صور أخرى، وهذا التوليد هو الذي أغرى أصحاب صنعة الفكر أن يهيموا بالخيال، لأنه ثروتهم الحقيقية.

□ سعة الخيال الافتراضي هي ميدان الاجتهاد

● و(المجاز) هو الجناحُ الذي يحلق بنا ويوصلنا إلى هذا الخيال الثمين، أو هو على الأقل: لغة تواكب المعاني التي يثيرها الخيال ليقتنصها، كمثل ماهرٍ يقترب بحذر من غزال بريٍ، يغافله، فإذا جفل: ركض بموازاته حتى يصيده، وهو صنعة قديمة، ومنحانا المفرط في النزعة العملية حرّمنا من فوائده، وزعم أهل التأويل أن القرآن امتلأ مجازاً، وزعمهم صحيح لولا أنهم جنحوا إلى تمويه يبدعي في مواطن عقيدية غيبية حقّها التوقيف الصريح، والمجاز قريب من فطرة الأوائل قبل أن يشوب الحياة التعقيد، ومن شأن روّاد الفكر والاجتهاد أن يُحيوه ويحتفلوا به.

● قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول: (مَن ثَمّ الخير: أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور)[٢]، وهذا تصوير أدبي رمزي ناجح، وما كنا نتظره من صحراوي يابس، لكن الخير له قوة نافذة تجعل البدوي ينطق بالمجاز والتمثيل الحلو، فكان

نتائج الخير عصافير تخفق بأجنحتها حوله، مع الصوت والصفير والتغريد، فتكون لوحة سرور، وهذا إحساس يجده فاعل الخير المكثر منه إذا حَسُنت نيتُه، فينفق وهو فرح، ويأمر بالمعروف وهو طروب.

ويلتذ مع كل غدوة خيرية، وتحلق روحه مع تلك العصافير عند كل زوحة إحسانية.

---

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢٨ – طبعة الدار العلمية.

● وكذلك الفقيه ثم المفكر والأديب، فمَن نَتجَ الخيالَ، ورصد وقتاً طويلاً للتأمل وتوليد الخواطر وحاوَرَ نفسه وتعمّق في الافتراض: أنتجت له تأملاته فراخاً من الاجتهاد والمعاني والإبداعيات، تخفق بأجنحتها فتبعد، فتنزل على أكتاف الدعاة في زوايا الأرض، فتغرد، فتدخل لغتُها العقولَ والقلوب.

● لكن صنعة الفكر الاجتهادي بهذا الوصف: تخرج عن حدود المحيط السهل، وهي مهنة النبلاء الأذكياء ومعادن النُخبة وأفراد الصفوة، وكم من مستشرف لها بدون كفاية تطاول فشجّه السقف.

● وإنما تنبغي وتسهل صعابها بشروط خمسة:

□ **أولها: ضبط الاجتهاد والفكر وسياحات الخيال بقواعد أصول الفقه ومنهجية الاستنباط وقواعد النظر، وإلا كان الشطح واللبث بمستوى السطح**، والمصالح بخاصة، معنى يزعمه كل ميمم وُجهة، حتى هَزُلت، وينبغي عدم الذهول عن تعارض المصالح، فإن من النادر أن يرتبط أمرٌ بمصلحة مفردة، وإنما بمصالح عديدة ومفاسد يقوم بينها تنافسٌ أو تضاد، **ولا تعتمد التحليلات أحادية السبب**، بل هي أسباب كثيرة وإن اختلفت مراتبها ودرجات تأثيرها، والعاصم من الورطات: أن تستقبل علم الأصول أنه: (مثار الحُجج، ومعيار البراهين المصون عن الزيغ والعِوَج)، وذلك ما استقبله به من الفهم: المجد الفيروز آبادي[٣].

□ في المنطق الأصولي حراسة و نظام

● أما الحجج والبراهين فهي النصوص واستقراء المعنى المشترك في حشود النصوص، ومنها تتشكل الثوابت والقواعد والموازين، لكن هيئة تحقيق كتاب الفيروزي ألجأتهم الحماسة العقيدية إلى أن ينكروا الصيانة عن العِوَج، لأن براهين الأصول يمكن أن تتطرق إليها اعتراضات ومناقضات مثل التي تتطرق إلى

---

(٣) المغانم المطابة ١/ ٨٢.

غيرها من العلوم الاجتهادية، ولم استحسن غضبتهم هذه، فإن مُراد الشيخ لم يعد ليتناول إقرار العصمة، وإنما أراد الإشارة إلى ما تقود إليه قواعد الأصول من وعظ الفقيه والمفكر والخيالي أن يحرصوا على الانضباط والخضوع لمفادها، والحذر من التهور والمبالغة وجزاف القول الموغل في التحرر من مفاد مُجملات الشريعة، ونحن اليوم أحوج من تلك الأجيال إلى هذه المواعظ، للانفتاح الجاري بين أفكار الأمم، والجهل يُغري صاحبه بالاسترسال مع العقليات والتأويلات ومزاعم المصالح وضبابية الإشارات المقاصدية، فتكون دلائل الأصول سبب عصمة، وفي هذا ما يوجب على المنهج العلمي التربوي الدعوي أن يروّج للدراسات الأصولية في المحيط الدعوي الخاص ثم العام، وأن يُصر على ذلك شارحاً ومفسراً مغاليق اللغة الأصولية، حتى تكون ثقافةً سائرة عند الجيلين، وذلك طابع ترشّح (العين) نفسها أن تنطبع به وتخضع له، ويليق لخطط التطوير والتدريب أيضاً أن تعقد الدورات لتدريس علم الأصول، وأن تكفل بعض الدعاة وبعدد كاف ليكونوا طلاب دراسات عليا في الأصول في الكليات الشرعية لينتصبوا فيما بعد كقدوات دائمة في المجتمع الدعوي ورقباء على صنعتي الاجتهاد والخيال وعلى صناعة القرار، لأن حيثيات علم الأصول أدق من أن يوعظ بها جملة واحدة لتؤسس رقابة دائمة ووقاية شاملة، بل ينبغي أن تكون حاضرة عند كل الحركات التفصيلية للأحداث والسياسات، لأن أطراف معادلاتها المؤثرة في المواقف تتغير، وتجعل الرؤية نسبية، ولابد من ملاحظة حكم الوقت وعوامل الظرف، وهي عملية تدقيق يخولها الشرع للفقهاء وعلماء الأصول ويفوضهم إياها، لا لوزير مثلاً، أو برلماني، أو إعلامي، أو أي قيادي دعوي لا يتقن معرفة الأصول، والشروط الفقهية لاعتبار المصالح وتمييزها هي بخاصة من أهم ما يَلزم صناع القرار مراعاته، وفيها نظر فراسي ذوقي لا يسهل على الطارئ أن يعرفه، وإنما تلزمه ممارسة أصولية طويلة متكررة ليتمكن منه الفقيه، ولا تكفي فيه المراجعة الميكانيكية السريعة، وإنما هو حكر على فقيه مسترسل يطيل محاورة ثلّةٍ من فقهاء، وكان قد جلس بين يدي المشايخ دهراً.

□ مذاهب الجمال تهب النفوس أهلية القرار السوي

□ الشرط الثاني: وفرة الأحاسيس الفنية لدى المفكر، وعلّو درجة الذوق الجمالي، بل الموازين الجمالية هي أخت الموازين الأصولية وبينهما طباق وجناس في الاشتقاق ثم في الأثر والنتيجة، وغاية علم الجمال الإسلامي أن يميل بالنفس نحو سكينة أعمق بعد طمأنينة الإيمان، لأن الحالات النفسية هي الجذر الأسفل لورقات الاجتهاد، فإن كان ثم استقرار وهدوء في الأعماق: جاءت الورقات خُضراً ربيعية ولها نضارة، وإن كان المنغرسُ مزيجُ القلق اللاهب والفوران العاتب على الأقدار: جاءت الورقات حُمراً خريفية يابسة، تأمر بالعبوس والغضب والثأر، لذلك لا يمكن فصل لغة الألوان وسياقات تجانسها عن لغة الاستنباط وسياقات الاجتهاد، ومن هنا كلّفت (العين) نفسها باستحداث تربية جمالية في محيط الدعاة وخطط التطوير، لأن المعيار الجمالي ما هو بشيء طارئ وثوب يُشترى ويُلبس، وإنما هو جملة انعكاسات كثيرة تنمو على مهلٍ وتبقى تتراكم في رحاب الفطرة السليمة النقية غير الملوثة، فإن كان مُعلّم الجمال قد تأخر وصوله فانحرفت الفطرة: انتظرنا عملية بطيئة تزيح التأثيرات الجمالية خلالها ترسباتَ التناشز والتنافر، وندع همسات الجمال تطغى على تمتمات الوساوس، وومضات النور تبدد عتمات الظلام، وقد جاء الفن التجريدي العالمي المعاصر على قَدَر، وأكثره يتوافق مع النمط الإيماني في الرمزية والتمثيل والإيماء، ولا أجد تباعداً وافتراقاً، ومن الممكن أن نستثمر إبداعاته لتطوير فن إسلامي إشاري يكتفي بجزء المبنى للإفصاح عن المعنى، وبالأثر للدلالة على المؤثر، وبالظل عن الجسم، وقد أبرمت (العين) خطة فنية تريد أن ترتفع بأذواق الدعاة ومعاييرهم الجمالية، من أجل أن تنالَ اجتهاداتهم الصفاء وتنسابَ سَلِسة، وكل اجتهادٍ لم يودع رَحِم الجمال فإنه حجر يتدحرج، وقد يتكاثف زخم العنف فيه، وقد ينتهي هادراً هادماً، وهل (اللطخات) الحمراء التي أرهقت الناس بعد تكفيرهم غير ذهول وغفلة عن مبتدأ درب الوميض الجمالي؟؟.

● ومن الغريب أن نتكلف نحن في الزمن المتأخر مهمة البرهنة على وجود هذه العلاقة الطيبة بين الجمال والفكر، بينما كان أجدادنا أوعى لها، فمما استوعبه إبراهيم بن محمد الشيباني في جيل السلف: أن حُسن الخط يمنح (بهجة الضمير)[٤]. وذلك يعني أن التجربة قد استوفت إدراك العلاقة بين الفن والنفس، **وأن صناعة الجمال وسيلة قريبة لإنتاج الانفتاح النفسي، وتحقيق طرب الروح،** وانتظار أصداء داخلية إيجابية يمكن توصيلها بومضة جمالية ثانية، ثم ثالثة وجعلها تترى، فما يزال الإنسان السوي موصولاً بالفرح ونلمس منه إقبال القلب، ليردف الحقيقة الإيمانية، وهذه لمسة قديمة عريقة ترينا طرفاً من (الوعي الجمالي) لأجيال المسلمين الأولى، وتخلّفنا نحن اللاحقون، وكان من اليسير علينا أن نتناوش التفاؤل والبشائر من مكان دانٍ ووسيلة سهلة فطرية بعيدة عن التعقيد، ولكننا ابتعدنا، وكتبنا على أنفسنا طول الطريق، ويليق أن نقترح على من لم تطحنه بعد آلام السياسة وضغوط معاناة الإصلاح أن ينتفض ويميل نحو الدرب الحضاري ليضع مع أقرانه **(ميثاق التربية الجمالية) التي تظاهر وتسند آثار التزكية العقيدية الشرعية وصفاء التوحيد، وتكون مورداً للفكر ومَدْرجاً تدرج عليه محاولات الاجتهاد.**

● وأصل القضية: أن النفس السوية الفطرية الساذجة: تُدرك المعنى الجمالي وتناسق الألوان، كذاك الأعرابي البدوي الذي سألوه: (أي الألوان أحسن؟ قال: قصورٌ بيض، في حدائق خُضر)[٥].

ومعنى ذلك أن حاسته الذوقية أدركت التناسق والتركيب الجمالي بين لونين، لا الانطباع الذي يولده لون واحد فقط، وعلى مثل هذه الإمكانية نبني خُطتنا في التربية عَبْر لغة الجمال، لتؤول في النهاية إلى لغة فقهٍ وأدب. ولغة حماسة وجهاد واعٍ واجتهاد.

---

(٤) (٥) العقد الفريد ٤/٢٥٦،٥٤،٢٥٤ – طبعة الدار العلمية.

◻ أجزاء الرأي تُولَد متناثرة فيلمّها فكرٌ تركيبيّ جامع

◻ الشرط الثالث: جماعية الرأي، وتكوين رُوحٍ كُلّية مشتركة تخرج عن الحد الفرداني والفهم الشخصاني، فيرتقي الفكر من مستوى الذوق الخاص إلى أن يكون تجربة عامة لا تعكر عليها محدودية الذكاء أو سلبيات الغضب، وذلك نمط وَرَدَ عند السلف وانتبهوا له.

● فإنما نعاني - نحن معشر الدعاة - مذهباً واحداً في الكتابة والبحث والتأويل، تبعاً لوحدة الجذر والمستقى، وتأثراً بثوابت الشرع، والكتلة الموضوعية المعنوية في مدونات فقه الدعوة هي فكر متصل، بعضه من بعض، وكأننا نحقق ظنَّ الحسن بن وهب حين قال: (الكاتب نفسٌ واحدة، تجزّأت في أبدان متفرقة)[٦].

● فأسماؤنا شتى، وأساليبنا متنوعة، وبلاغتنا درجات، ولكن الفحوى مترادفة، والطرائق متناسقة، والوجهات متوازية، وينتظمها اجتهاد متقارب، وتحركنا جامعة، ويجذبنا ويسوقنا تحليل يتباعد من أجل أن ينعطف نحو اندماج وتداخل، ففينا ينتسب الجزء إلى الكل، وإذا انتشرت تأملاتنا نحو الأطراف القصية: ارجع المحيط أصداءها إلى المركز، فتكثف، وتكون شديدة قوة التأثير، اشتقاقاً من الحقيقة الليزرية وحرارتها، فيعود أمرنا بحاجة إلى رمزيات وخيالات يحس بها المخالط لنا بَرْدَ الفكر الإيماني المطمئن الذي لم تكوه لذعات القلق، ولا شتّته متاهات البحث عن الصواب، ويعود المحيط يحوينا ويحويه، في دائرة واحدة، تكون مثالاً للبيئة المتجانسة التي تنتج (الكتابة الجماعية) المشتركة، وإنما أريدت مجلة (العين) لتكون هذه البيئة.

● وسبب هذه الجماعية الفكرية: أن جمهرتنا الدعوية لم يحشدها تجنيد إجباري أو سَوْقٌ جزافي أو سباق نحو مصالح دنيوية، وإنما جَمَعَتْنا بيعة رضائية، وأغرتنا جنانٌ وأجور أخروية، فثبتَ الحق لكلٍ منّا أن يضع حَرفاً في وثائق الرأي.

● و(الشورى) وفق أدب الشرع إنما تجمع نصف هذه الحروف فقط، لأنها تكون

(٦) العقد الفريد ٤/ ٢٥٦،٥٤،٢٥٤ - طبعة الدار العلمية.

في سويعاتٍ كل موسم، وفي سياقٍ لا يختاره المستشار، وتعكّر على الرأي آنذاك حِدّة انقسام الرأي في المواقف المشكلة، وهي غالباً ما تكون كذلك صفتها، وهذا التعكير يمنع بعض الرأي، لكن (التحدي) المتولد من حماوة البحث واستقتال كل صاحب مذهب في الانتصار لفحوى مذهبه يُتيحان ظهور حروف كانت مركوزة في الأعماق وأثارتها المساجلة فطفت إلى السطح، فتكون تعويضاً.

● وأما النصف الآخر من الحروف فإنما يتراكم ويتولد ويتكثف في عملية بطيئة عبر حوارات حُرّة في وقت غير عصيب، ويكون استرسال الداعية خلالها على السجية، وترفع عنه إرهاب الرقابة والإعابة، وتمنع عنه إلقاءات التقليد إذا شاهد عند التصويت كثرة كفوف ترتفع بالموافقة أو الرفض كأنها غابة، فيملكه الاستحياء فيخالف قناعته، أو يتقي تهمة الانفراد وخرق الإجماع فلا تبدو منه مناضلة ومقارعة.

□ الغزوات العديدة هي مصادر غنائمنا

● وما دام الوصف كذلك: فإن مولّدات الفكر إنما تكون عبر تقسيم كتلة الدعاة الكبرى إلى زُمرٍ صغيرة تتشكل منها المحاور والمنابر، والمجلات منها، ودُور العلم منها، والمؤتمرات والندوات ووسائل الإعلام، إذ هناك يكون التكافؤ وشعور الأمن، ويبلغ استفزاز المكنون أقصى درجاته، وفي هذا السياق المنهجي استأنفت (العين) بزوغها، لا تُغري الخيالي المتأمل بإفصاحٍ شجاع فقط عن حروفه، بل تدربه وتعينه على خطِّ الحروف جَليّة، لتكون ريحاناً وتعليقاً وديواناً.

□ الشرط الرابع: بذل المجهود، ومضاعفة التعب، واستنفاد الوسع، والتعني في الطلب، وشدة الحرص على الوصول إلى نتيجة اجتهادية، والإبعاد في الخيال.

ومفاد قصة موسى والخضر: استحباب إيغال طالب العلم في الرحلة إلى العلماء ليأخذ عنهم ويتفقه بهم.

وفي آية سورة الكهف: ﴿لا أبرحُ حتى أبلُغَ مجمَعَ البحرين أو أمضيَ حُقُبا﴾.

(أي: ولو أني أسيرُ سنين كثيرة، والحقبُ: سبعون سنة، أو ثمانون، وقيل: أكثر.

فمثلُ هذا النبي الكريم الحليم يقول: إني أسيرُ إلى لقاء هذا العبد الصالح، ولو أني أسيرُ هذه المدة المتطاولة والسنين الكثيرة حتى أظفرَ بلُقياه)[٧].

● وللدعاة في هذا الهدي النبوي تذكرة، ولهم معه مناسبة اقتداء، وتطاول السير إنما هو إشارة لجنس البذل وإتعاب النفس حتى يصيبها الرهق، ودلالة الاقتضاء تجعل كرم الداعية وإنفاقه لماله ووقته وصحته وخبرته مثيلاً للسير حُقُباً، فمن أراد أن يماشي رجال (العين) فليستعد، وليبذل.

وهذه هي طريقة محمد بن عبد الباقي الحنبلي الإمام، وقد أفصح عنها فقال: (ما أعرف أني ضيّعت ساعة من عمري في لهوٍ أو لعب)[٨].

وقد نقضنا اجتهاده هذا في (صناعة الحياة)، ورأينا في اللهو تجديد النفس والطاقات والهمة إذا كان بمقدار، ولكنها سيرةٌ في وتيرة الجد والمواصلة والإنتاج نعظ بها أنفسنا: **أن نكون دوماً في الاستنفار لا نهدأ، وإنما الراحة تمكين لذي العزيمة أن يستعد لجولة أخرى من الدأب، ويميزها الأصيل عن التمادي والرخاوة والتضييع، ومَن ركب أمواج العزائم في شبوبيته: أطال التحديق بقية عمره نحو المعالي، فيفتأ يكون صاعدا، لا يستلذ الوقفة، بَلْهَ النزول.**

والمحرك لمثل هذه المبالغة: عُشق العلم، فعن ابن الجوزي أنه قال[٩]:

(ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق).

ومثل ذلك: الإصلاح، والجهاد، وأغلب أبواب الخير، وهذه هي الرتبة التي تليق للداعية أو طالب العلم: أن لا يرضى ببقاء على هامش، أو لبثٍ عند ساحل، بل يكون الولهان الذي يهيم غراماً بجلسة بين يدي أستاذ، وأجل أمانيه أن تنال يده أي كتاب، ثم يُتاح له أن يبقى معه نهاراً كاملاً بلا إزعاجات قرين كسول يعزف عن العلم ويرصد اهتمامه لتتبّع أسعار الباذنجان.

---

(٧) المغانم المطابة ١/ ١٠٠.

(٨) (٩) الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/ ٣١٦، ١/ ٢٤٥.

وأصل الطموح يستلزم إرهاق النفس، فإن المعنى الأول الذي يتبادر إلى الذهن

عند تفسير الطموح: أنه ذهاب إلى أبعد من الحدود المرئية، وتجاوز للقناعة، واقتحام المجهول، وطلب المزيد، وتوسع الأمل، وارتياد العرصات البكر، وبلوغ الأقاصي، في مثابرة، وموازاة للأشواق وحرارة العواطف إذا خمت.

● والخيال شريك في هذه العزمات كلها، وقد أوجبناه على المفكر والمجتهد والمبدع، وألزمناهم به، فعاد هو والطموح يستلزمان المبالغة في البذل، وإطلاق العنان لجوادٍ يقطع المسافات، ولتصورٍ تأملي لا يجب أن تكون له نهاية، ثم عادا معاً: الخيال والطموح: يقدمان الضمان أنْ إذا قطع الهمام المسافات وسار الحُقُبَ والفي المجتهد: فإنه لا يقلده، لأنه قد أوتي بهما عُدّة الإبداع كاملة، فلماذا يقف؟ وجدير به أن يبدأ من حيث انتهى أستاذه الحكيم، لا من حيث بدأ وتوسط، وإنما أراد الملاقاة والاقتباس لتستمر أسانيد الحركة العقلية لا ليتواكل ويقنع، والمجرّب يدرك أن وصول التلميذ إلى شيخه يمنحه إمكانية الارتفاع والنظر الرفيع الفوقي، ومعنى ذلك أن ساحات الخيال قد توسعت أمامه، فتعود وتيرة الاجتهاد تهتز وتنتج.

▢ الشرط الخامس: وجود الظهير المعين الذي يحمل عبء الجهود المعاشية وأثقال الأعمال التنفيذية، من أجل أن يتجرد المفكرُ للتأمل والتنظير، والمجتهدُ للقياس والتقعيد، وذلك هو (الكاتب) بلغة السلف، و(السكرتير) بكلام الأعجمين المعاصر.

ففي القديم كان السياسي يتمنى [10]:

مَن لي بكاتب لبقٍ رشيق ... زكي، في شمائله جَذاره

تناجيه بطرفك من بعيد ... فيفهم رَجْع لَحْظك بالإشارة

لكن هذا التمني سهل، وحصول تواضع الظهير صعب، لأن مثل هذا الصاعد الذكي المؤهل إذا اكتشف الشمائل الحسنة التي حباه الله بها: سرعان ما يتخيل

(10) العقد الفريد ٤/ ٢٥٤ – طبعة الدار العلمية.

لنفسه الرئاسة أيضاً، ويسلك القفز، لا عتبات المدارج.

ومع ذلك فما زالت تلك المظاهرة هي أمنية القائد الدعوي، والرمز الذي يتصدى لزعامة الجمهور، والبرلماني، وكبراء الإعلاميين، وأقطاب التربية، ورؤساء المؤسسات، ورواد الاجتهاد والتجديد الفكري.

● **وذلك أن التأمل حالٌ يقتضي التفرغ والبعد عن الشواغل والملهيات ومُثيرات الغضب والتوتر وجاليات الأحزان، وهو منزلة متقدمة موهوبة هبة من الله تجعل العقل دائب التحرك، موزوناً تغلب عليه الأنماط المنهجية، ويحتاج إلى سكون طويل وانسياب يتهادى خلاله بين القلب والنفس من أجل أن يصل إلى درجة العنفوان ليكتشف معادلة أو عَلاقة أو وصفاً دقيقاً، ولذلك يجب أن يُعان على**

الوصول إلى هذه الدرجة من الحركة من دون تعكير أو السماح للصوارف أن تصده وهو في منتصف دربه وتلهيه، فهو مؤهل مستعد قد أُودعت فيه إمكانات الإبداع، لكنه حسّاسٌ جفول وحشي الطباع كأنه غزال وثاب نفور، وكأنه جوادٌ بري أبيض اعتاد حُرية الخَبَب في المروج الخضراء فينطلق فجأة إذا اقترب منه غريب!! ولذلك يجب أن يَترك الرهطُ متميِّزهم هذا لسياحاته التأملية، وأن ينتظروا ترجمات الإلهام التي يفوه بها أو يخطها قلمه، ومن جُملة الإعانة له: تفريغه، ورفع وسوسة المعاش عنه.

❑ روّاد بلا قلق .. يتقدمون في نَسَق

● **قال ابن الجوزي: (كان للعلماء مَن يُراعيهم من الإخوان، حتى قال ابن المبارك: لولا فلانٌ وفلان ما اتجرتُ، وكان يبعث بالمال إلى الفضيل وغيره)**[11].

أي أنه كان يمارس التجارة من أجل أن يُعين العلماء. وهذه سُنة دعوية كانت سبباً في عمران العلم ودوامه، ومانعاً أن يمد الثقة يده إلى سلطان ولئيم، والمفروض أن يحييها أغنياء الدعاة اليوم، من دون فضيحة ومنّة وإحراج،

(١١) الآداب الشرعية ١/ ٢٤٧.

بل بالسرّ والستر، فإن الحياة تعقدت، ويكاد طالب العلم والمفكر إذا ابتلي بعائلة أن يقطع سيره وتتلفه وظيفة ومهنة، والعفاف زينة العلماء، فليوفره الأغنياء لهم لتصلح الحياة ويكون الاقتداء، وليتجردوا للتفكير وصياغة تعابير الإيمان وتفسيرها، وموازين الخطط والمناهج وشروحها، وأحسن من ذلك: أن تتولى الإدارة الدعوية هذا التفريغ، فإنها الأعرف، وأن يُسمى راتبٌ دائم يُقدّر وفق قواعد ونظام، على أن لا يعامل المفكر وصاحب الصنعة العلمية كالتنفيذي.

□ □ أما بعد: فإننا بتوفير هذه الشروط الخمسة: يمكن أن نقترب من النجاح في تجويد صنعة الفكر الإسلامي المتقدم الذي يؤذن له أن يرتكب الإبداع، والله الآذن، وله المشيئة، وإذا صدق القول في أن الشركات الكبرى تصرف عُشر ميزانيتها على عملياتها التخطيطية والتسهيلات الإدارية: فإن القياس يشير إلى أن الدعوة يلزمها أن تؤمن بمثل هذا المنطق، وأن تمنح الفكر اهتماماً مضاعفاً، وأول ذلك: العلم الشرعي الذي يمكن تنميته تحت ظلال أصول الفقه، ثم المعرفيات بعامة، والأداء الحضاري، ولا ينبغي أن نترك الدعاة عُشاق العلم لأقدارهم، بل أن نعينهم بمثابات مؤسسية، وترتيبات منهجية، وبتفريغ وابتعاث، وتنصيب رؤساء على مجاميع كثيرة ننشرها في الساحات، ثم برفع (نبراسٍ) نوري فكري

يُناسب المستوى النخبوي الذي وضعتهم هممهم فيه يكون محور البَوح والحوار والنقد، ويراد لمجلة (العين) في طورها الجديد أن تكون هذا النبراس والمحور، تواصل الشوط الأول، وتبني طبقة على طبقته، وتعتني بنشر مفردات كثيرة وتفصيلات تجزيئية في ميادين الفقه والأصول والفكر المتقدم النخبوي النقدي، وفي علوم التخطيط والإدارة والإبداع، وفي النظر السياسي من زاوية استراتيجية شمولية، ومعرفيات التاريخ والأدب والفن بأنفاس عميقة، لتكوين نظريات العمل الإسلامي، ثم لتحديد خصوصيات القضية العراقية خلالها، بما كان ويكون من صيرورة القضية العراقية قضية مركزية للأمة.

● وقد مدح أعرابي رجلاً فوصفه بأنه: (بعيد مسافة العقل)، ثم قال: (إنما يرمي بهمته حيث أشار الكرم)[١٢].

● ومثل هذا النموذج هو الذي تحتاجه مرحلة العمل الدعوي الإسلامي المعاصرة، فإن العاطفة تصنع شيئاً، ولكن العقل يمنح أكثر، إذ باتت الحياة معقدة، وتؤدي الأمورُ بتخصص، وتلزمها خطة، وتنظمها منهجية، وكل ذلك تترجمه مساحة عقلية لها سعة وامتداد، لكن ينبغي أن تكمّل ذلك همةٌ عالية بعيدة تستهين بذل الغالي.

● لذلك كان من تمام وصف الآخر له أنه: (مستحكم الأدب، من أي أقطاره أتيته: انتهى إليك بكرم فعال وحُسن مقال).

فهندستُه كثيرة الزوايا والأقطار والتربيع، وله استدارة أيضاً وتكوير، وما بين ذلك كله شأنٌ سالك: الفعلُ سوي مؤثر، والفكر واضح، والبيان يحكمه منطق.

● فتلك صفات الداعية الناجح الذي تريد (العين) أن تساهم في تربيته وصناعته.

● وتلك آفاق (العين) وغاياتها ومنهجيتها ووسائلها، وكل داعية شريك وكفيل ومالك، والتطوير قد يعسر في الساحة العريضة، والزعامة قد تنالها تهمة إذا صارحت، فكانت إنابة (العين) لتكون البديل، وآلة التطوير، والزعامة الفكرية الواعدة.

● ولرجال الخيال من (الراشد).... تحية.□□

---

(١٢) العقد الفريد ٤/ ٣٥ - طبعة الدار العلمية.

٢ فتوح الحب في بلاد الأحزان

□□ في سِيَرِ أعلام النبلاء : أن سيداً من سادات المسلمين جلس وحيداً خالياً قُبيل معركة أهاجتها فتنة بين المؤمنين، وقد شرد ذهنه وأطرق وأطال التأمل، فاستغرب ذلك منه تلميذ له، فأجابه فقال :

(لا تلمني : كنا أمس يداً واحدة على مَن سوانا، فأصبحنا اليوم جَبَلين من حديد يزحف أحدنا إلى صاحبه).

وما زال هذا التصوير يصلح لوصف محنة العراق المعاصرة، فوحدة البلد قد انفطرت، في شرخ يقارب الكسر، وتجانس الشعب قد اهتز، في رجفةٍ تُداني الانهيار، ولئن كان السيف والدرع بالأمس يمثل جبل الحديد، مجازاً ومبالغة، فإن البنادق وأنواع الأسلحة والقذائف اليوم تمثل جبال حديد حقيقية.

● وفي صدر الإسلام طاف أبو قِلابة الجَرمي بعض مجالس المسلمين، فرأى فيها لهواً وغيبة وهذراً، ولم يسمع فيها كلمة علم أو مواعظ أو شيئاً من الأدب والتاريخ، فقال : (إني لأرى هذه المجالس إنما هي مُناخ البطّالين)[1]، والمجالس **اليوم يصدق عليها هذا الوصف أكثر، وكأنّ الاختلاف السياسي والعقائدي والفكري قد حرف اهتمامات أكثر الناس، ومال بهم إلى كذب وأراجيف ومبالغات وظنون سيئة وفكر جزافي، حتى تعطّل الخير فيها، فصاروا من أهل البطالة، فإنه كما تنشأ لأهل المهن بطالة تحرمهم من المورد المعيشي : تكون بطالة بين رجال الأحزاب والطوائف تذهب بهم بعيداً عن العلم والمنطق والتحليل الموزون لقضايا الحياة، وتملأ**

أوقاتهم بلغو وبذاءة واستنتاجات تأباها قواعد الفقه وموازين العلوم وأصول التفكير المنهجي، فتنعدم موارد فهم الواقع، وتنعكس مقاييس المصالح،

(١) البداية والنهاية ٩ / ٢٤٠

ويغيب الإبداع، وتحصل بيئة تنمو فيها وساوس الحرب الأهلية، وحالة العراق تنحدر سريعاً إلى مثل هذا المستوى بعدما كثرت الاغتيالات، فإن كل رصاصة ظالمة تستجلب رصاصة أخرى ثأرية، فيتفاقم الأمر.

● ويساعد على حصول هذا الانحراف : وجود الزعامات الجاهلة، ففي ظواهر الحياة : أن الصراع يتنامى في ظروف الشبهة، فيقف الأشرار في طريق الأخيار.

وفي صفة الزعيم السوء : يوجد رجزٌ لرؤبة، الشاعر البدوي القديم، فيه بلاغة، وجمع لكبار المعاني في إيجاز، فيقول :

وقاتِمِ الأعماق ، خاوي الـمُخْتَرَقْ

مُشْتَبِه الأعـلام، لـمَّـاعِ الخَفَقْ[٢]

ولم يُشرح، ولكن الإشارات فيه جليلة.

فهذا النموذج البائس هو :

☐ قاتم الأعماق : له نفس سوداوية داكنة تحمل حَسَداً وغيظاً.

☐ وخاوي المخترق : فإن المحلّل لو اخترق بواطنه ودواخله لوجدها فارغة خاوية لا تحمل علماً ولا حكمة.

☐ ومشتبه الأعلام : أعلام طريقه غامضة، ليست في أماكنها المفترضة التي تكفل الاستقامة، فهو في متاهة يهيم.

☐ ثم هو لـمّاع الخَفق : أي يخفق له رأي بين آونة وأخرى، فإذا فحصته وجدته لمعاناً فقط لا حقيقة له، أو تخفق له راية ويؤسس حزباً أو مجموعة، لكن تلمع راياته لمع السراب ولا عمل بعدها، أو يزعم الجهاد، لكن يجنح لتكفير وغلظة على المسلمين.

لذلك : فإن رجز رؤبة ما هو برجز، ولكنه رواية ظاهرة سياسية، وهو صياغة

---

(٢) لسان العرب ٢ / ٨٨٦ / ٧٧٢

لمعادلة من معادلات حركة الحياة، قيمتها مضاعفة لكونها خلاصة تجربة في سطرين، وإبداع فقه الدعوة فيها : أن المعنى كان مُغلقاً، فتم إحياؤه بالشرح وبيان المناسبة، إذ كان قبل ذلك يمر به الذاهل عن عمق معناه مرور الكرام،و صاغه رؤية لوصف وادٍ بصحراء، و استعرناه لوصف النفوس.

● فإذا كان هؤلاء القاتمون الخاوون أصحاب الخفق اللامع أهل سطوة، وأعانتهم فلتات الزمن على أن يكونوا في ميزان القوى المادية أرجح من دعاة الإسلام، فهل يكون من شرط العمل الدعوي التمكين والسيطرة، أو المشاركة السياسية، إذا كان المحيط لا يؤتمن وكثرت الفتن؟

التجربة الدعوية والفقه النفسي يذهبان كحكم عام إلى ترجيح العزّة والأَنَفَة والإباء واعتزال جمهرة المؤمنين للفتن العامة عند اشتدادها، ويكون ترجيح أحد حالين : إما هذا الاعتزال عند اليأس، من الإصلاح، وخوف التنازل الكثير، وإما المخالطة إذا انفتح باب أمل التأثير الجزئي، تخفيفاً للشر، وفراسة القادة هي المرجع.

لكن الاحتياط إذا رجح جاز، فإنه وصية، وغايته : الاحتفاظ بالجمهرة المؤمنة نقية وعلى العزيمة، لتعود إلى الميدان عند انفراج الأزمة وضعف الفتنة.

وشاهد ذلك قول علي ﷺ لـمّا ذكر فتنة فقال :(إذا كان ذلك : ضَرَبَ يعسوب الدين بذَنَبِه، فيجتمعون إليه كما يجتمع قَزَع الخريف).

(اليعسوب : السيد والرئيس والمقدم).

وقزع الخريف : السحاب المتناثر الخفيف.

(قال الأصمعي : أراد بقوله : يَعسوب الدين : أنه سيد الناس في الدين يومئذ.

وقيل : ضرب يعسوب الدين بذنبه : أي فارَقَ الفتنةَ وأهلها، وضرب في الأرض ذاهباً في أهل دينه.

وذَنَبه : أتباعه الذين يتبعونه على رأيه، ويجتنبون اجتنابَه من اعتزال الفتن.

ومعنى قوله : ضرب، أي ذهب في الأرض، يُقال : ضرب في الأرض مسافراً أو مجاهداً)[٣].

فالانحياز الدعوي إذا صار اليوم بترجيح فقهاء الدعوة له على المشاركة: فإنه حين يصير إنما يمثل سياسة إيمانية مقبولة، لما فيه من تحقيق لنجاة الكتلة الدعوية من الفتن وآثارها.

وهذا الوصف لوجود " سيد الناس " الضارب في أرض العراق سائحاً أو مجاهداً : متحقق في الحالة العراقية، فقد انتدب عدد من سادات مسلمي العراق أنفسهم للتصدي لمهمة الإصلاح عن طريق العمل الدعوي الشامل الذي ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الإسلام، فأصبح واجب عامة أهل العراق أن يكونوا أعواناً أتباعاً للخطة الدعوية الإصلاحية، وإذا استحضرنا شروح فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي لمعنى تجديد الدين على رأس كل مائة سنة، وأن " المجدد " في التفسير المعاصر يمكن أن يكون " جماعة " ذات منهج واحد، وليس شرطاً أن يكون فرداً واحداً: فإن تعدّد قادة الإصلاح والجهاد يكون مقبولاً إذا كان بينهم التصافي والتعاون والتحالف والتنسيق، وكان المنهج والفكر في وجهة واحدة.

● لكنّ هناك خصوصية واضحة في ظرف العراق تجعل العزلة الدعوية الجائزة في بلاد كثيرة : مرجوحة في العراق، لأن مخالطة المؤمنين لنظام الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية أصبح هو السبيل الأقرب لتحصيل الحقوق، وحماية الناس، وتقليل السلبيات والهدم والعدوان، بل وصلت المشاركة السياسية

واستعمال وسيلة الانتخابات وقبول المناصب الوزارية والأمنية إلى درجة الوجوب في فتوى كثير من علماء الشريعة في العراق، وهي الفتوى الراجحة، ورجالها من أوثق المسلمين وأعرفهم بالمصالح وأحكام الضرورات.

---

(٣) لسان العرب ٢ / ٨٨٦ / ٧٧٢

فكيف يكون التوفيق بين تعارض الوجهتين؟ أي بين الوصية الأولى المأثورة عن السلف الصالح، والتي فيها الاعتزال والجهاد، وبين التعامل السياسي الذي تنصح به الفتوى العراقية المعاصرة؟

الوسطية دائماً هي التي تنجد الدعاة، ورفض النظر الأحادي والتفسير الصارم ورؤية أحد الوجهتين فقط، وذلك يعني أن الموقف الصحيح يمكن أن يجمع بين السلوكين، فتكون هناك مشاركة سياسية، مسايرة لإملاء الضرورات، ثم في نفس الوقت وعلى طول المدى : تكون هناك عزلة تربوية علمية دعوية، يكون فيها تجميع المؤمنين، وتلقينهم العقيدة والفقه والفكر وفق منهجية تجريبية، وتعويدهم الأخلاق الإيمانية والتعامل السامي، وتجميل نظرهم بالمعرفة الأدبية والتاريخية والفنية الجمالية، وصناعة شخصية حضارية لهم، وإتاحة استعمال آلات التطور المدني والعلمي التطبيقي لهم، وتجويد كل هذا الأداء بتنظيم وتخطيط وعمل مؤسسي ما أمكن، وتعويدهم الأنفاس الجماعية والخروج من الفردية، وإشاعة الحبّ في زمن العبوس ! !

أما التوسع الجماهيري فقط، وعمل الشارع، فأمر فيه خطر، وعلى الأحزاب الإسلامية والتكتلات الدعوية أن تكون أوعى لمتطلبات المستقبل، وأن تسمح لأتباعها أن يهتفوا في الشارع، ولكن توجب عليهم الرجوع إلى المحراب، والتحلّق لدراسة الشرع.

ويؤذن لهذه الأحزاب والتكتلات أن تكون لها مكاتب سياسية قيادية، ولكن يجب عليها أن تؤسس بموازاتها مكاتب تربوية ومكاتب فكرية.

والقضية ينبغي أن تدور بين قائد ذكي مكافئ يفكر، ومنفذ مبدع وفيٌّ يبذل.

● وفي اللغة : أن القيادي يسمى :

□ الجَحْجاح، وهو السيد الكريم.

□ والجَحْفل.

□ والـمِدْرَه : وهو السيد الشريف، سمي بذلك لأنه يقوى على الأمور، والـمُقدّم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال، وهو رأس القوم والدافع عنهم، والزعيم والخطيب الذي يُرجع إليه.

□ وهو العريف : أي القيّم والسيّد، لمعرفته بسياسة القوم، والعريف : النقيب، وهو دون الرئيس، والجمع : عُرَفاء، والعريف : القيّم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم(٤).

□ وهو الداعية الكافي الذكي الذي له عند المهمات تشمير وذَقّ على الصدر، وهو الذي أوجز الشاعر وصفه فقال :

ليسَ أخو الحاجاتِ إلاّ الشَمّري

والجَمَلَ البازلَ والطرفَ القوِي(٥)

وهو الجاد الحازم الشجاع، الذي يضيف إلى قوته الرأي الناضج، ويكون مستعداً للقضايا الكبار بالتشمير والتهيؤ، وليس هو المرتجل المضياع.

وهو الفتى الأشمّ الموصوف في شطر شعر آخر :

★ أشمُّ من الفتيان، جزلٌ مواهبُه ★

وهذا موطن إشارة مهمة : أن لهذا الفتى المواهب الثقيلة العظيمة التي تستخرج الرأي وتأذن بالإبداع والاجتهاد، لا التقليد والمجازفة، وتلك صفات الدعاة، وعنوانها : مواهبُ تشتغل في ظلال القوة.

● وأما الجندي النازل إلى الميدان : فأول شروطه وأهمها في مثل ظروف أحزان العراق : أن يشيع الحُبّ، على مذهب الأستاذ القدوة عباس السيسي رحمه الله في كتابه " الدعوة إلى الله .. حُب ".

□ والتجربة تفيد بأن الناس تؤسر للمقابل إذا عاملها باليُسر وابتسم لها، والمنهج الدعوي شديد الحرص على أن يوصي الدعاة ببذل المودة للمدعوين،

---

(٤) كل ذلك في لسان العرب ١ / ٤٠٣ / ٤٠٧ / ٩٧٥

(٥) لسان العرب ٢ / ٣٥٦

لأن محاسن الأخلاق هي مفتاح التأثير وحصول التأييد، ومنطق الأنفُس الطيبة في استقبال الوافد عليها هو ما جعله الشاعر لبيد على لسانها حين اللقاء من قوله :

★ الا انْعِم على حُسن التحية واشربِ ★

فليست كلمة (أنعِم) مجرد شعار شكر على ما هناك من جمال التحية والسلام، وإنما هي ضيافة كاملة أيضاً وموائد وشراب، وكذلك الفطرة السليمة دوماً، تستخرج منها بالرفق الكثير.

□ والابتسام والمرح من صفة عقلاء المؤمنين، وفي القديم (قال المُتَنخِّل الهذلي يذكر أضيافه :

سأبدَؤُهم بمَشمَعةٍ، وأثني

بجُهدي من طعام أو بساطِ

أراد : من طعام وبساطٍ، يريد أنه يبدأ أضيافه عند نزولهم بالمزاح والمضاحكة، ليؤنسهم بذلك).

(يريد أنه يبدأ أضيافه بالمزاح لينبسطوا، ثم يأتيهم بعد ذلك بالطعام).

□ ونُحبُّ لفتى الدعوة أن يكون مرحاً يُحبِّب نفسه للناس، فإن ذلك أول الظَّفَر والفوز.

هو الظَّفِرُ الميمونُ إن راحَ أو غدَا

به الركْبُ ، والتِّلْعابةُ المتحبِّبُ

فهذا التلعابة هو الناجح، الذي تكون وسائل الإبداع بين يديه وفي كلامه كأنها أصول ألعاب يبرع بها فيحوز إعجاب الرائي فيتبعه ويواليه، فهو يلعب الكرة أحياناً، ويسبح ويهوي غاطساً، ثم يتحدث عن فلك وفيزياء وذرة وليزر،

ثم يرتكب إبداعاً ويبدي من الذكاء جملة، ويضع بين كل ذلك حقائق الإيمان وقواعد الشرع وحكمة الشعراء، فيكون قدوة بين أقرانه وزعيما.

ويجمع كل ذلك : أن يكون الداعية ظريفا.

☐ والظَرْف : البراعة وذكاء القلب، يوصف به الفتيان والفتيات، ولا يوصف به الشيخ.

وهو أيضاً : حُسن العبارة، وحُسن الهيئة، والحِذقُ بالشيء، وكذلك : البليغ الجيد الكلام، والكياسة.

بل الظرف في اللسان : البلاغةُ، وفي الوجه : الحُسن، وفي القلب : الذكاء.

وقال محمد بن يزيد : الظريف مُشتق من الظرف، وهو الوعاء، كأنه جَعَل الظريف وعاءً للأدب ومكارم الأخلاق.

● لكن صنعة إشاعة الحب هذه إنما هي صنعة دعوية، لذلك يبقى وصفها : أن تكون محروسة بالهيبة، والداعية العراقي اليوم ينشر الابتسام ويبيع الورد على مذهب مغني الرافدين " حضيري أبو عزيز "، لكنه يقتبس من شخصية " كافور الحريري " مسحة، وهو الذي كان يلقب بشبل الدولة، و " المظفري "، وكان شيخ الخُدّام بالحرم النبوي الشريف أول القرن الثامن، وفي البلد من نسل الأشراف السادة من يُرهق الناس ويستثمر نسبه لمصالح الدنيا، فكان من خبر المظفري الدعوي هذا أنه (أرعبَ قلوب الأشراف بصلابته وهيبته، ومن غريب ما يُذكر عنه : أنه عَطَسَ مَرّةً من المِرار، فوقع لهيبته المؤذنُ من أعلى المنار)[٦].

فالحُبُ نِسبي، ومن الدين : البغض في الله.

● وإذا كانت هذه هي واجبات القادة، وتكاليف الدعاة الأتباع : فإن العامي، ورجل الشارع، والواقف في صف الصلاة : ليس بمنجاة من تكليف وبذل ونُصرة، بل دين الله والإنصاف يوجبان عليه الإسناد وتكثير السواد وقول السَّداد وتقديم المِداد.

---

(٦) المغانم المطابة في أخبار طابة ٣ / ١٢٦٩

وأول واجبه : أن يحضر حلقات الدراسة الدعوية القرآنية، على طريقة أهل دمشق لما استمروا وجود الصحابي الجليل أبي الدرداء ﷺ بينهم، ففي الخبر : أن (الذين في حلقة إقراء أبي الدرداء كانوا أزيد من ألف رجل، ولكل عشرة منهم مُلقّن، وكان أبو الدرداء يطوف عليهم قائماً، فإذا أحكم الرجل منهم : تحول إلى أبي الدرداء، يعني يَعرض عليه).

وفي خبر آخر (عن مسلم بن مِشكم : قال لي أبو الدرداء : أعدد مَن في مجلسنا، قال : فجاؤوا ألفاً وستّ مائة ونيّفاً، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبحَ : انتفل وقرأ جزءاً، فيُحْدِقون به يسمعون ألفاظه)[٧].

فالجمهرة المؤمنة من نجباء العراق : يليق لهم أن يتحلقوا حلقات عُشارية، كل حلقة من عشرة، ويكون تفويض أمرهم إلى داعية له سابقة وخبرة ومِران بعد الإيمان، وتكون مدارسة القرآن والفقه والفكر الإسلامي وتاريخ الجهاد وقواعد ممارسة السياسة، وتكون من كل ألف وستمائة نفْس إيمانية منهم "فِرقة" تتفقه وتعالج الواقع، وتحاول الاستدراك والتقويم وفق الطرائق الدعوية الشمولية.

● والمستحسن أن تكون لكل قبيلة أو لكل مدينة فرقة، على مذهب "بني سُلَيم" في نصرة رسول الله ﷺ، فقد كانت (لبني سُليم مفاخر : منها أنها أَلْفَتْ معه يوم فتح مكة، أي شهده منهم ألف، وأن رسول الله ﷺ قدّم لواءهم يومئذ على الألوية، وكان أحمر)[٨].

وكأن هذه المنقبة تليق اليوم لكل مدينة أو عشيرة : أن تقدم للعمل الدعوي المعاصر ألفاً من الوعاة ومناصري العمل أو من المجاهدين حين الأزمات وانتفاضات الحرية، تأسياً ببني سُليم.

● فإن لم يستطع المؤمن ذلك : فليس أقل عليه من أن يترك الشر ويترك غيبة الدعاة والمجاهدين ويذكرهم بخير، ففي حالة الفتور ينبغي أن يلجأ المؤمن إلى

---

(٧) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٥٣ / ٣٤٦ طبعة مؤسسة الرسالة.

(٨) لسان العرب ٢ / ٦٨٠

القانون الذي وضعه مؤرّق العجلي حين جاءه شاب يقول :

(أشكو إليك نفسي : إنها لا تريد الصلاة، ولا تستطيع الصبر على الصيام، قال : بئس الثناء ما أثنيت على نفسك، فإذا ضعفت عن الخير : فاضعف عن الشر)[٩].

فالنفس تعاند وتكسل، والحازم من ينتبه في تلك الأيام، ويمتنع عن أن يرتكب المعاصي إذا لم يجد نشاطاً نحو الخيرات، فإذا نجح في فطم نفسه عن الشهوات فقد استوفى فن سياسة النفوس، وأصل ذلك أن يقطع الاسترسال مع الوساوس، فيقف ولا يتجاوز إلى ساحة المعصية، ويترك المجاهدين يجوبون بين دجلة والفرات ، ويدع الدعاة يصلحون في الأرض □□

(٩) العقد الفريد ٣ / ١٣٤ طبعة الدار العلمية.

□□كل أسماء الله تعالى حُسنى، وله الجلال والكمال والعزة، ولكن يأسرني اسمه (الواسع) سبحانه كلما تلوت (والله واسع عليم)، وألبث معه متدبراً مفكراً، ولست أدري سر ذلك، ولكني أزداد إيماناً بعد كل سويعة من هذا التدبر، واجد أن أوسع سعته: سرعة برّه بالعبد المحسن، وبالتائب الذي يستأنف التقوى من بعد ذهول، وإنعامه على بعض عباده بذكاء ونفس زكية.

● ومن قصص سرعة انفتاح باب رحمة الله أمام التائب، وأنه باب فسيح يفضي إلى درب لاحب عريض: ما هو مذكور في سيرة العابد الزاهد حبيب العجمي رحمه الله من أنه كان في زمن التابعين، وكان أول أمره من عامة الناس الذين يسدرون في الغفلة، ولا يتورع عن الربا، (وقد مرّ في بعض الأيام بطريق البصرة، وإذا الأولاد يقولون: تنحّوا عن حبيب، لئلا يصيبكم من غبار قدمه أكل الربا) فذهب إلى الحسن البصري وتاب عنده، فلما رجع قال الأولاد بعضهم لبعض: (اتقوا أن تؤذوا حبيباً التائب بعجاج أقدامكم فتكونوا بذلك من الخاطئين. فقال في نفسه: سبحان الله! التقبُّل إلى الله يُفضي في ساعة إلى الذكر الجميل والثناء الحميد.) (وبقي يتردد إلى الحسن البصري)[1].

□العقل المعرفي الثاني تابع للعقل الفطري الأول

□ ولكن هذا النوع من البرّ مهما كان جيلاً وتطمع النفوس المؤمنة أن تناله: يبقى هو البرّ الأصغر، وفضل الله درجات، ويهب الله ما هو أكثر جمالاً منه، لمن يشاء، ويعددّ أنواعه على المؤمنين، فتكون حياتهم أبعد عن الخطأ والمعاصي وما يشين الاسم ويعكّر الصورة، وينتشر لهم ذِكرٌ صالحٌ، فتهوى إليهم القلوب، ويكون أحدهم للمتقين إماماً.

(١) العقد اللامع، لعبد الحميد عُبادة / ٤٨٨ وهو كتاب في تاريخ بغداد طبعته مطبعة أنوار دجلة ببغداد.

● ونوعه الأول البهي: يتمثل بالعقل، والفطرة السليمة البريئة من نوايا الغش والعدوان، والسليقة النقية الصافية التي لا تمازجها أوساخ الالتفاف والدوران والانفلات، لأن أخلاق المؤمن إنما هي صدى لصفة الشرع، وظاهر آيات الله وبواطنها سواء، والتقي يلتزم المحكم منها، وأما المتشابه فهو شغل الذين في قلوبهم زيغ ويحرصون على الحيصة، ونحن نؤمن بأهمية العلوم والمعارف المكتسبة وأنواع الخبرات في صناعة العقل المؤهل للعملية الدعوية والممارسة القيادية، وفي حيازة الحكمة، لكن تبقى المكنة الفطرية الذاتية هي الأصل، ويكون المرء مطبوعاً على تصرف جبلّي يكون أساساً.

وفي الشعر القديم الذي يصف العقول[2]:

فعقــلٌ هــو مطبــوعٌ	وعقــلٌ هــو مــصنوعُ
ولا ينفــع مــصنوعٌ	إذا لم يــك مطبــوعُ
كمــا لا تنفــعُ الــشمسُ	وضــوء العــين ممنــوعُ

فالمصنوع إنما صنعته المعرفيات والتربية والاستقراءات الفاحصة المستوعبة التي تمسح خير ما في الساحة وتصفه، وأما المطبوع فمبعثه من المقدرة الإبداعية واللمعات الاجتهادية والنزعة القياسية التعليلية، ومستندها إلى ذكاء وافر وبديهة حاضرة، وكل ذلك هبة من الله للعبد.

والتقاط هذا الذكي الإبداعي، وصناعة عقل علمي معرفي ثانٍ له: هو أسلوب إنتاج صنّاع الحياة الذين يحركونها.

❑ مفتاح امتلاك الحياة.. إصرار على حيازتها

● وذلك يؤدي إلى رجحان العنصر الذي يملك النفس الحُرة، على العنصر الذي يتثاقل إلى الأرض ، فالأخلاق الفطرية أساس في صنعة السيطرة على الحركة

(٢) كشف الأسرار للحكيم الترمذي / ٦٥/ ٧٣/ ٧٥.

الحيوية، وتظاهرها أخلاق الإيمان، فإنك ترى الكافر يكون شجاعاً أيضاً، لا المسلم فقط، وصابراً، ودؤوباً، وقد قيل في التمثيل أن (السخاوة: أصلها حُرّية الطبع، وتطرف الهمة)[٣].

ويعني بالتطرف هنا: المبالغة وأن تصل الحد الأقصى، والناس من جميع الأمم في ذلك سواء.

إن حرية الطبع تعريف بسيط لحقيقة كبيرة، عليها التعويل في المنافسة الحيوية، فإن من الناس من تركّب من مزيج الحرية والأنفة والعزة والإباء والاستقلال والتعالي، فيرفض القيد، ويتمرد على ظلم يناله، بل وعلى عزل وإهمال وتجاوز، ويرى أن له الصدارة دون العالمين، أو القبر، ويدأب يصاول، ويكون سخياً بروحه وماله ووقته، وذلك هو الذي يكسب الجولات، لا القاعد المستخذي. وهو يذهب في ذلك بعيداً، ويكرر المحاولات ولا يهدأ، وإن صرفته الموانع استدرك واستأنف وبنوع من الإلحاح، وذلك هو التطرف في الهمة، فهي مجموعةٌ ومركّزة وتكمن وراءها غلواء، وميزان التنافس يستحسن هذا النمط.

❑ وطأة الشرع الثقيل يجعلها الله أجنحة لتحليق المتقين

● وإسلام المرء: استسلام، وهو الذي ينبغي أن يكون، ولن تكون العاطفة لوحدها كافية، ولا الركعات، وقد قيل [٤]: (الخضوع: أصله: وضع النفس تحت الحقوق) أي أن الخضوع الإيماني يبدأ من مرحلة الامساك بالنفس مسكة قوية، وإحكام السيطرة عليها، بحيث يسوقها المؤمن إلى مقام الذلة لله تعالى، من أجل إعزازها، وإلى الإخبات الواطئ، لترتفع وتسعلي، وذلك مقام لا يكون رمزياً خيالياً، ولا مجازياً بإيماء، ولكن بوضع النفس تحت الحقوق، وهي حقوق الله بتوحيده وتنزيهه وعبادته بوعي، و يكون عن البدعة في نأي، ثم هي حقوق الناس، بالتزام الأحكام الشرعية في الحلال والحرام، وإن ثقلت عليه، وذلك هو

---

(٣) (٤) كشف الأسرار للحكيم الترمذي / ٦٥/ ٧٣/ ٧٥.

الذي تشير إليه لفظة (تحت الحقوق)، فكأنه يرزح ويتألم، لكنه يَقبل ويصبر، وربما يلتذ، لما يرجوه من ثواب في الآخرة، فاستسلامه واعٍ، ونظرته بعيدة تخرق العاجلة.

❑ وسطيون في السعي الدنيوي.. مبالغون في الأخروي..!

● لكن المؤمن الدعوي الواعي إن بالغ في رفعة النفس: فإنه يتوسط في سياسة البدن والدنيا.

وفتى الدعوة: مُثقف شمولي بارع مبدع، له في كل فن يد، مع التقوى والوسطية، وهو الذي يصف نفسَه مفاخراً فيقول[5]:

لـي في النحـو فطنـةٌ ونفـاذٌ ... أنـا فيـه قِـلادةٌ بوشـاح

كاتـبٌ حاسـبٌ أديـبٌ لبيـبٌ ... ناصحٌ زائدٌ على النُصّاح

ثـمّ أروي مـن ابـن سـيرين في الفقـه بقـول مُنـوّر الافـصاح

وكـثير الحـديث مـن مُلَـح النـاس بـصيرٌ بخافيـاتِ مِـلاح

كـلُّ هـذا جمعـتُ والحمـد لله علـى أنـني ظريـف المـزاح

لـستُ بالناسـكِ المـشمِّر ثوبيـه ولا الفاتـك الخليـع الوقـاح

وهذا المقدار من علامة التقوى تكفيه إن شاء الله، فإن أساس الإيمان هو ترك الخلاعة، ثم الزهد أمر يتوغل فيه الصاعد بتدرج و رفق و إحسان، و ليس حسابه لأمواله عبر حاسوبه إذا أحسن السمت وسالم وخدم جانباً من قضية الإسلام بأقل ربانية من ركعات المحراب.

ونفيه النسك عن نفسه لا يعني قلّة اجتهاده في العبادة والتلاوة والنزول في مقامات السالكين، ولكنه يشير إلى طبيعته الإنتاجية، وأنه لم يعتزل الحياة، بل يحركها من خلال المعارف التي يحوزها، وبرقابة فقه ابن سيرين، و(أفلح إن صدق)

---

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤/٢٨٦/٣٢١ طبعة الدار العلمية.

وثبت على الوفاء، فإنّ في الاعتدال وهذه الأريحية بركة، و(النصح) أي الإخلاص للمقابل، أصل، وهل محنة الناس تكون إلاّ من الغش، والوجوم، والفسوق، وقد ترك ذلك.

□ معنا دلائل الوحي وشهادة التاريخ.. وبهما نُناظر

● وذلك يجعله مخالطاً بالحسنى والبشائر، ومحاوراً بمنطق وإنصاف وعقلانية، وعنصراً منفتحاً على المجتمع، لا تصده سلبيات العزلة، ولا وساس الأنانية، وإنما هو تنموي، يصنع الحياة، وقد رفَعَه دأبه الخيري عن مقاربة لغو الجاهلين.

وفي تجربة التربية المتقدمة، وإذكاء المهارة القيادية، وتحريك المقدرة الاجتهادية: يسوغ جداً للداعية أن لا يكتفي بمحاورة أقرانه الخلّص وأشكاله من الذين صفت مواردهم الإيمانية، بأن يتعداهم ليحاور مَن لم يتمحض أيضاً، وبقيت فيه بقايا علمانية إذا كان حسن النوايا، بل لا ضير أن يحاور المخالف الواهم، لعل الداعية خلال معمعة الرد عليه يوظف أقصى طاقاته الفكرية فيصطاد الرأي الجيد الذي كان ساكناً في أعماقه إذا حركته عوامل التحدي، فيظهر، ومثل هذه الحالة معروفة في حياة الناس المسترسلة اليومية، وليست نادرة، وعن مثلها أفصح الشاعر حين يقول:

أقام يعاطيني الحديثَ، وإننا ... لمختلفانِ حين تُبلى السرائرُ

يُحدّثني مما يُجمّعُ عقلُهُ ... أحاديثَ منها مستقيمٌ وحائرُ

فلم يرفض ذلك ورضي بالحديث الدون المخلّط، لما فيه من تكميل لمحاورة الكاملين، ولأن صنعة الرأي تحتاج استمرارية وحركة عقلية دائبة، ثم لأن الإصلاح لا يجدي إذا فرضته السلطة، وإنما يلزمه إقناع وشرح وبيان من خلال الحوار، وذلك يقتضي إطالة الأنفاس مع أصحاب الأوهام، فإن الإعلام والتربيات الجاهلية سلكت بالناس دروباً بعيدة عن المساجد وروحانياتها ومنطق أهلها.

وكتاب (حوار مع الشيوعيين) هو مسلك عملي جعل سُنّة الحوار طريقة دعوية ثابتة، ووجوده منذ عشرات السنين شهادة تصويب لمذهب النقاش بالحسنى مع المخالفين، وتطورات الفكر السياسي، بل والإسلامي: توجب صدور كتب أخرى في الحوار مع المغرورين بالعولمة، ومع الجانحين للصلح والسلم، ومع التكفيريين، ومع الشيعة، ثم مع الحكومات التي ما زالت تكبت الحريات وتوهمها مخابراتها باستمرار وتيرة الكبت، وأهم الحوار الذي نحتاجه هو مع (التفجيريين) الذين غدت نكبة الأمة بهم أكبر من نكبتها بالفجوريين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

◻ السليقة سقف كرومنا البيضاء..!

● إنما كل المطارحات ينبغي أن تستحضر ما يليق لأهل العزائم من الثبات على أصول الشرع وكليات العقيدة وجزئياتها، ثم لما يسوغ الاجتهاد فيه مجالٌ لتعديل وتصويب، وإذا انطلقنا من حقائق الفطرة وأسلوب فهم النفس بشطرين: زكي، وفاجر: فإن ذلك يكفي، لأن الشرع يتضمن الفطرة، والإيمان كله إنما هو ترجمة للانشطار النفسي.

بل حتى منهجية الإعداد الإداري الإبداعي وتربية الكفايات اليوم هي نفسها التي كانت عند عرب الجاهلية، مما يدل على اعتمادها على الخلفيات الفطرية بشكل رئيس، كالذي أفصح عنه عروة بن الورد حين افتخر، وأنه فارس معه:

لسانٌ، وسيف صارمٌ، وحفيظةٌ   ورأي لآراء الرجالِ صَروعُ

فهو يفخر بمنطقه، وقدرته البيانية الوصفية، المشفوعة بقدرةٍ تحليلية سماها (الرأي) الذي يستخرج الحجج والبراهين بذكاء وافر يغلب مراوغات المنافس، ويظاهرُ رأيَه: رصيد من طباع نفسية متوازنة ومجموعة قِيَم ومشاعر إيجابية وأخلاقيات، في كتلة تسمى: (حفيظة)، فإن عاند المقابل، ولم يُذعن لنداء الأخلاق وصواب المنطق: كانت قوة السيف فاصلة عنده. أما عندنا في مرحلة

الدعوة فمواصلة للحوار والجدل بالحسنى، ولكن دولة الإسلام لها سلطة وسطوة، وهي أحرى أن تختار القوة أو استمرار المنطق والصبر لجاحد حتى يفيق.

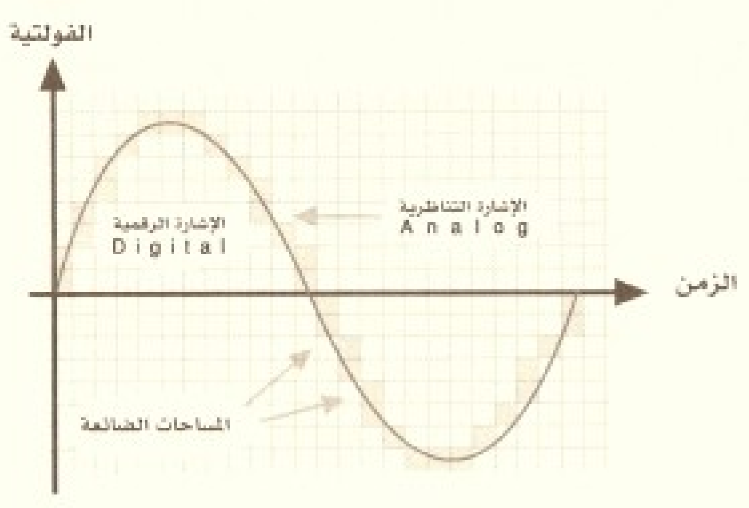
❑ المنحنى البياني للإشارة التناظرية الإلكترونية أصل في فهم الخطاب الدعوي

● وحين كنت أشرح هذه المعاني وما يقاربها لفريق من الدعاة الإبداعيين: ذهَبَ الأخ المهندس أبو عبد الرحمن وليد الرواي إلى أن الإشارة التناظرية الإلكترونية تؤيد هذا المنحى الحواري ونسبية الحكم على المقابل ووجود الدرجات الحساسة في تقويم السياسات والأشياء، وخطأ الجزاف والحكم الصارم الواحد، وكتب بعدئذ جازماً بأنه: (لا يمكن في هذا الوقت التعامل مع الناس بمنطق الأبيض والأسود أو الواحد والصفر في ميدان الإصلاح الدعوي بصوره عامة. فالمسافة بين الأبيض والأسود يتخللها عدة ألوان وهي تناظر المسافة بين الإيمان والكفر فهناك المؤمن الذي حسن إيمانه و الذي وصل إلى درجة الإحسان، وهناك المذنب والعاصي والفاسق والفاجر، وكل هذه الأصناف تنطبق عليها صفة الإيمان ومن ثم يمكن التعامل معها قبل أن نصمها بالكفر والضلال والشرك.

ومن أراد أن يفقه التعامل مع هذا الكائن البشري يجب أن يعلم بأنه لا يخاطب آلة صماء كالحاسوب الذي يفهم منطق (٠ و ١) فقط ولا يعير أي اهتمام للوجدان والأحاسيس والضعف التي جبلت عليه الفطرة، فلذلك فإن المتطرف المتشدد ينظر إلى الناس من خلال الحرام والحلال فقط، ومن خلال الكفر والإيمان فقط، ومن خلال الشرك والتوحيد فقط، ونسي أن هناك بين الحلال والحرام مسافات هي (المندوب، والمباح، والمكروه).

وعندما تدخل الدعوة المعترك السياسي بصورة خاصة: ففقه السياسة الشرعية بقواعده يُنبؤنا بأن هذا المبدأ هو آكد، فـ (الموازنة بين المصالح والمفاسد) و(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) و(اختيار أهون الشرين) كلها تصبح قواعد في غاية الأهمية ولا يمكن أن نتحاكم بعد ذلك لمبدأ الواحد والصفر فقط.

واستعارة بعض الحقائق العلمية في علم الكهرباء والإلكترونك لوصف بعض الظواهر الطبيعية يمكنها أن تساعد في فهم كيفية الخطاب الدعوي، فبواسطة الـ (analog-signal) أي الإشارة التناظرية التي تحاكي الظواهر الطبيعية نستطيع رسم أحد الموجات السمعية والتي تقع ضمن الترددات (٢٠-إلى-٢٠٠٠٠) هرتز كما هو موضح بالشكل المرفق.



فإذا أردنا من الحاسوب أن يتعامل ويفهم هذه الإشارة فهذا يتطلب من ذوي الاختصاص أن يحولوها إلى إشارة من نوع الـ (digital-signal) أي الإشارة الرقمية الـ (٠) و (١) وكما هو واضح من الشكل البياني ستبقى هناك مساحات ضائعة لا يفهمها الحاسب الآلي).

قال: (وهذا ما ينطبق كذلك على النفس البشرية إذ ستبقى هناك مساحات لا يمكن أن يفقهها المتطرف والمتشدد والذي يريد أن لا يكلف نفسه عناء الفهم للمتغيرات والمستجدات التي تكتنف حياة المدعوين، بل يريد بسرعة الحاسوب أن يحسم موقف المقابل ويخلص إلى النتيجة بطريقة الـ (٠) و (١) لكي يتنحى بعد ذلك جانباً وينعزل، لأن الأبيض الذي يحلم به عزيز التحقق، والسواد الذي يراه هو الطاغي، بل يتعدى ذلك ويشهر سيف التكفير بوجه كل من يخالفه.

أن الداعية عندما يخاطب الناس في سبيل الإصلاح فأنه يخاطبهم بأسلوب المنهج القرآني المتدرج ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ينقلهم خطوة خطوة من الظلمة إلى النور من غير أن يقفز بهم بصورة حادة وسريعة ليحرق المراحل، وأنما يسكب في أرواحهم نور الله الذي له سلطان مؤثر على النفوس بالتدرج وبجرعات، فينفعل ويلين قلب المدعو ويذوق طعم الجرعة في كل مرحلة، ويحس بالروح والطمأنينة، لأن موجات النور تتناغم مع تردده الطبيعي الذي فطر عليه، إلى أن تنضج المراحل ويغمره النور. وبدوره فإن هذا المدعو بعد ذلك يتعامل مع غيره بنفس الأسلوب بفقه شمولي معتدل مرن واقعي وبنَفَس طويل وصبر جميل ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾.

●● وهذه التفاتة إلكترونية مهمة تشهد لوجود العلاقة بين أجزاء صور الحياة الكبيرة، وأن الله خلقها متوافقة منسجمة متكاملة، بعضها من بعض، وأن كتلتها مترابطة وتخضع لقوانين فيزياوية واحدة، وهذه هي الحقائق التي يقوم عليها علم الحركة الحيوية والطريقة المنهجية في رصد ظواهره، وإضافات المبدعين من المؤمنين أصل في نمو هذا العلم الجديد المبارك.

□ نحاور الحضارات.. لكن نجاهدها إذا جارتْ فجارتْ..!

● ونحن دعاة السلم والحوار، ولسنا نحب العدوان، ولكن العجرفة إذا أغلقت على المقابل سبيل الرشاد فجالَ وطاش: فتحنا باب ما أحل الله من الدفع، وصرنا إلى مذهب الحرّ المظلوم.

ولما رأيتُ الحربَ حرباً تجرّدَتْ	لبستُ مع البُرْذينِ ثوبَ المحاربِ
وكنت امرءاً لا أبعثُ الحربَ ظالما	فلما أبوا: أشعلتُها كلَّ جانبِ

وقد جاءنا المجهول من وراء البحار فاحتلنا، فلبسنا ثوب الجهاد، فما له من مهرب، ثم جنى جهله عليه ثانية، فإذا به هو الأثول الذي لا يفقه حجم المعركة فيظل يغالط.

□ الحرية عِلمٌ له أصوله ومذاهبه

● وتلك هي نتيجة (علم الحرية)، فإنّ هذا النمط من نفرة المؤمن من الدنايا والملوثات والاختيارات الدون، وتمسكه بالعلو: بقي يتراكم، ويضع له أحرار النفوس هندسة وتقعيدا، ودخلت عليه أساليب اجتهادية، ولمسات خاصة يبتكرها النبيل بعد النبيل، حتى نضج وصار (عِلماً) متميزاً له تنظير وفكر وأركان وشروط، وفيه تفصيل، وسمّاه الحكيم الترمذي في رسالة كشف الأسرار: (عِلم الحرية)، والرجل صوفي، وعقيدتنا السلفية تبدي له أوهاماً، ولكن ذهابه إلى تأصيل القضية النفسية المعنوية على هذا النمط وجعلها علماً هو (إبداع) إسلامي محض نلتقطه ونفخر به على المقلدين لإبداعات الغربيين، ونحن الدعاة أولى به وأحرى أن نتداوله، وقد صدق هذا الحُر الترمذي، فإن التجربة التربوية الدعوية المعاصرة: أنشأت مذهباً في الحرية الإسلامية معتدلاً وسطياً، توزّعَ الاستعلاءُ فيه على نقاطِ سيطرةٍ عديدة أخلاقية وسياسية ومالية واقتصادية، فقاطعوا التطبيع مع إسرائيل، وأشاعوا عُرفاً في النقاء المالي والفرح بالفقر الفردي من أجل تنفيذ التنمية الجماعية، إذ الغير يغشّ ويرتشي، أو يكسل ويستهلك، وأعاد الدعاة تذكير الناس بأخلاق الرحمة والنجدة عبر عمليات الإغاثة التي صاروا أساتذتها. وأدلّ من كل ذلك: نمطهم الاستقلالي في العمل السياسي، والحساسية المفرطة من مخالطة ومحالفة من يتدنس بالولاء لكافر ومحتل ويرتضي التنسيق مع القوى الدولية الاستعمارية، حتى أصبحت (الواقعية) نصيحة يقدمها أهل اللين للدعاة أهل الصلابة: أن يتنازلوا عن أشياء مما يزعمون أنه مثاليات، لتكون لهم أنصبة في الوزارات والمناصب بعد طول غياب فرضه العفاف. وكل ذلك يشهد بأن (الحرية الإيمانية) هي عِلمٌ حقاً، وأنها أبعد من أن تكون مجرد عواطف وحزمة مشاعر، بل هي مجموعة معادلات وشروط متكاملة تؤلف نظرية تامة وسلوكاً واعياً يتناغم بسلاسة مع الفطرة ومواقف النبلاء وما يقتضيه العدل، وإذا أبدت الأيام سلوكاً لدعاة يخالف هذا فإنما هو من خطأ

الاجتهاد الذي لا يبرأ منه بعض مَن يحرص على هذا العلم، والجمهرة على صواب بحمد الله، وفيمن يحاول قد يكون الفاشل.

وخطأ الدعاة أمر غريب، لأن الظلم شاخص، وللأحرار منابر تذيع الأشواق، وينبغي أن تكون لهم في قصص الناس عبرة، مَن نجح أو ربح، ومَن طاش فأخفق، فإنه كان يُقال: (مَن أخطأ في ظاهر دنياه وفيما يؤخذ بالعين: كان أحرى ان يُخطئ في أمر دينه وفيما يؤخذ بالعقل.)[٦].

فالدروس العينية الشاخصة كثيرة، عن يمينك وشمالك، من بين قريب وجار وصديق، والمفروض أن تستفيد منها، فإن لم تفعل فإنا سنخاف عليك بدعة وشبهة، وتكون عن مفاد العقل بمعزل، بينما العقل هو مركز فهم الحياة ووضع حلول المشكلات، وأنت سيد الموقف، وبإمكانك أن تهمل شأنك وتدخل المتاهة، أو أن تستجمع عقلك ليومض بالأفكار والرؤى والإبداع، ويعلم الحرية.

☐ في بلاد الأحرار فِمَمٌ تُنير بنارهم.. ودبان دأبٍ وإنتاج

● لكن من الممكن أن يطرأ على فكر الحرية ومواقف الأحرار تعكيرٌ، مع حسدٍ ومعاكسات: إذا ألجأهم الغرام بها إلى انكشاف لا يحدّه حَذر.

والواجب: أن يكونوا على الطبع الذي كان عليه أبو قطيفة الأموي من الحذر والرقابة على لسانه لما قال:

قد يكتم الناسُ أسراراً، وأعلمُها ... وليس يدرون طول الدهر مكنوني

فمكنونه مُصان، محروس، لا يعرضه أمام الغرباء هاذرا، وهذه صفة ينبغي أن يكون عليها السياسي في كل مجتمع معقد كثير التنافس والتراصد والمكائد.

على أنه هاهنا يبدي مقدرة أكبر من هذه، هي علمه بما يكتم الناس من أسرار، وذلك فن فيه مهارة، فهو يربط بين القرائن ليفهم الحال، ولبق منطقي قوي البيان، يستطيع أن يستدرج المقابل ويورطه في فلتة لسان، أو أنه إيماني خبيرٌ

(٦) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤/ ٢٨٦/ ٣٢١ طبعة الدار العلمية.

قلوب، يميز جيداً لحن قول من يحاوره، ورجفة النبرة الكاذبة، والميل عن سواء اللغة، والولع بالتعبير المبهم، فيجمع من خلال ذلك نواقص المعاني وشظاياها ويركبها فتكون هي المعنى الكامل المستور، ولمثل هذا ورد القول الكريم بأن المؤمن ينظر بنور الله، وعلى مثل هذا ينبغي أن تحرص التربية الدعوية التطويرية، وتلك هي قوة الفِراسة.

□ فبِلهٌ تُسبِل الإزار.. وبنتظمها المدار.. وتوقد المنار

● وفي وادينا الأخضر.. ثم عند النبع الصافي والساقية الجارية والدولاب الدوار: يكون جلوسنا لنرقى الناس برُقية الدعوة.

ومن أعلى منارة مسجدنا يكون أذان الحرية.. وتحت طاقه العتيق يكون الإخبات وتطول ساعات التدبّر العميق.

فالدعوة طريقة إصلاحية، تعامل الناس، كل الناس، وفيهم الصالح وصريع الشيطان، وهي مكلفة بالرفق، وإن تمسح على رأس وصدر الشهواني الذي غلبته الملذات وانغمس فيها، وأن ترقاه برُقية ليتوب، إذ عساه أن يكون ذكياً شجاعاً يخدم قضية الإسلام إن استطعنا تثبيته في صف الصلاة، لذلك يكون من واجبنا أن نقترب من ذي ولع بخمرٍ عِنَبي أو فكري، مثلاً، ورث حيد الأمجي، فطفق يقلده، يُظهر الإصرار..

شربتُ المدام فلم أُقلع	وعوتبتُ فيها فلم أسمع
حُميدُ الذي فرغتْ كأسُه	أخو الخمر، ذو الشيبة الأصلع
علاهُ المشيب على حُبِّها	وكان كريماً فلم ينْزَع

وكان من خبره أنه ذهب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فرقاه، فأصبح كريماً حقاً بطاعة الشرع، وليس الكرم الخادع الخمري.

وهي طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً، فقد رفض تعنيف المبتلى بشرب، وإنما كتب له آية من آيات التوبة، فانتهى، وطريقتنا الإصلاحية عُمرية

بحمد الله، وشارب الخمر الذكي الألمعي الإبداعي نؤاخيه متى تاب، ونفسح له الطريق ليخدم قضية الإسلام ويلغي ذكريات متاهته، بل قد نكون أحرص عليه إذا جارينا الراغبَ الاصبهاني في اجتهاده الذي يفضل الفاسق التائب على من استرسل في البراءة بعد الطفولة، لخبرة الأول بمعنى الفسوق والعصيان، وتجربته العملية المريرة، فيكون أبعد عن مقارفته ثانياً بعدما أسبل الإزار الطاهر.

□ حزب القلوب المتشاكلة

□ فهذه عشرة أنواع من البرّ الذي يُنعم به الله تعالى على عباده الذين يقومون بواجب النذارة والدعوة إلى صراطه المستقيم، وباجتماعها يتوضح جانب من دلالة اسمه (الواسع) سبحانه، فقد نوّع أشكال فضله عليهم وعلى الناس، ونقلهم إلى فسحة وتيسير ومجال رحب، وأنقذهم من ضيق الأخلاق وتوتر العلاقات.

● ووسيلة كل هذه الخيرات: التآخي، وترابط قلوب المؤمنين والدعاة، والعيش في رحاب المودة، وكبت دواعي الحسد.

ومقام الاخوّة هذا واسع، فيظن الذي يأتي منه القليل أنه قد استوفى وبلغ الأعماق، لكن قصص (الأخوانيات) تُريه أنه يقف على الساحل فقط ولم ينغمس بعد.

● وأول درجات الأخوة: أن يأسرك الهيام بأداء هذا الحق، وأن يبلغ الشعور عندك مداه، وتحرص على عمران صِلاتك الدعوية وودك لأقرانك وأساتذتك حتى تصل إلى الدرجة التي كان عليها الشيخ أحمد بن بالغ المصري، حيث ملكه (الغرامُ بالتئام الإخوان) كما وصفه الفيروز آبادي[7]، فتكون مثله، ويأسرك هذا الغرام الجميل بجمع شمل الدعاة على صفاء وتعاون.

● ورصد المؤرخون ظواهر صغيرة في سيرة الناس، لكنها عظيمة الدلالة والمعنى، وتشخص كدرسٍ واعظٍ يجبر العاقل على أن يطيل فيها التأمل.

من ذلك انعطاف السياق عند ذكر بعض أسماء الصالحين نحو تسجيل ظاهرة التعاون والتوازي، فقيل: (كان الخضريُ والعادلي في السكنى مُتعادلَين متجاورين، وعلى فعل الحسنى متعاونين مُتوازِرَين.).

ثم في سيرة مختار الزُمرُدي أنه (كان قريباً لمحسن الإخيمي جمالِ الدين، فهما يتآنسان في قَرَن، ولا يتدنسان من معايب المثالب بدَرَن، ويمشيان في نَسَق واحد من الهيبة والمهابة، ويُمسيان في لَسَقٍ شديد من حُسن الودادة والصحابة، مع رُجولَةٍ وشهامة، وحذاقة بدقائق الرئاسة والزعامة، ومحافظة على وظائف المروءة، وملاحظة لما يتعين على المسلم من المكارم والفتوة.)[8]. والقَرَن: الاقتران، واللسق: التلاصق، والرُجلة: القوة.

وحين نصعد إلى عصر الصحابة نتذكر أخوة علي والمقداد، وسلمان وأبي الدرداء، رضي الله عنهم. **وهي قصص تشرح امتياز التربية الدعوية المعاصرة في النهل من هذه الموارد وتجديد السمت القديم في سياقات مستأنفة تبدي استمرار قابلية استجابة القلوب النجيبة لموعظة التآخي مهما صعب الزمن وشاعت المادية والقسوة والأطماع، وذلك هو العامل الحاسم التفوقي الذي نالته الدعوة وأفلحت في صناعته: أنها سَمَت بأعضائها فوق مستوى الكثرة الغثاء ونجحت في تكوين نماذج أخلاقية مثالية كأنها خيالية لكنها حقيقية وتعيش في عالم الواقع، إذ الغير النائي عن حياة الإيمان يضطرب ويضطرم ويحرقه التحاسد.**

● أو يكون الداعية مثل دينار البدري المدني، أحد وجوه المدينة المنورة في القرن الثامن. كان (إذا تحقّق مريضاً: داوم في بيته على طبخ الأغذية اللطيفة العطرة الفائقة، والأدوية المناسبة اللائقة، ويحملها بنفسه ويحضرها عنده، ولا يستعمل في ذلك أحداً، ولا غُلامه ولا عبده، ولا يخص بعوارفه معارِفَه، بل يعم به كلَّ مَن كان جاهله أو عارفه، وهذا شأنه في كل ما ملكت يمينه، ووراء ذلك بذلُ العرض وكسرُ الوجه في مساعدة المنكسر المديون، والفقير الذي قلّلت الديونُ منه نورَ

(٧) (٨) المغانم المطابة في أخبار طابة للفيروز آبادي ٣/ ١١٦٣/ ١٢٧٤/ ١٢٧٦/ ١٢٠٥.

العيون، فإنه كان يجتهد في إرضاء بذيانهم، وإن أحوج الحال إلى الضمان، دخل بنفسه في ضمانهم.)[٩].

● عندئذ يكون استثمار هذه المعطيات الربانية والمنح الثمينة من الله الواسع العليم في منهجية تربوية دعوية تؤكد هذه الأحوال، وبها تتحول (الأخوّة) إلى معنى أكبر يتقمص شكل كُتلة شاخصة مميزة في المجتمع تمثل نوعاً من (الأخوة الجماعية) الجاذبة لكل من يعمر قلبهُ بهذه المعاني العالية، فتتكون (بؤرة الإصلاح) و(حزب) الاستدراك والتنمية والبناء.

و(الأحزاب: كل قوم تشاكلتْ قلوبُهم وأعمالهم.)[١٠].

وعندئذ يكون التقدم الواثق، لأن معنى الأخوة سيدوم ويتواصل، وتتراكم آثاره، لتوالي أجيال الدعاة، فلا يكون انقراض الثقة والقدوة والمثال، بل تبقى نقطة الإشعاع تومض، وتتحول قصص الأموات إلى مواعظ للأحياء وفق المنهج والتوريث وظواهر الحركة الحيوية.

● وليس هذا المذهب في الأخلاق والإخاء وعشق الحرية مجرد رمز وخيال ومثاليات نحلم بها، بل هي سيرة عملية لبعض أجزاء الدعوة وقادتها حين كان منهم تمام التشمير وحمل القضية محمل الجدّ، فصيغت (قِطَع من التاريخ الإسلامي) القديم والحديث والمعاصر على هذا النحو الفسيح، ونبضت الحياة خلال تلك القطع الزمنية واستمر نبضها يحرك، وتنتصب سياسة محفوظ النحناح رحمه الله في الجزائر كشاهد ومثال للتطبيق والالتزام بهذه الأبعاد والمفاهيم، وفي كثير من خصاله الخاصة وأخلاقه تكميل لتلك السياسة الصائبة، وتكمن فيها لمسة ذاتية وهبتها جُملة من المعاني الأعمق مما هو سائد أو يتداوله العرف، وقد سجن وعُذّب ووقع عليه ظلم، فكان (علم الحرية) عنده من علوم اليقين، لا الظن والتخمين، بل هو من تلقين المعاناة، وفي صبره وكظمه الغيظ حين كانت دماء إخوانه تفجرها السكاكين بالتأويل الإسلامي الخوارجي أو في البراهين على

---

(٩) المغانم المطابة في أخبار طابة للفيروز آبادي ٣/ ١١٦٣/ ١٢٧٤/ ١٢٧٦/ ١٢٠٥.

(١٠) المغانم المطابة ٢/ ٥٩٧.

بلوغ سياسته وأخلاقه مداهما الأقصى من الصواب واستيفاء حدود الوعي، واستوفى حزبُه صفة تشاكل القلوب والأعمال.

وذلك الذي كتبته في ذكراه رحمه الله، وحديثي عن الوعي النسبي في خططه، وفي أحاديثه التي تترجم آلامه وآماله.

□ الوعي النسبي في خُطط محفوظ

□ وذلك (حين تكون سيرة أحد نبلاء المسلمين عميقة الأثر، بليغة الإفصاح، واضحة الطبعة: فإنه يترك لمن بَعده مجالاً رَحباً ليستنبط من أعماله ومواقفه الدروس والدلالات، وذلك هو شأننا مع ثري في المعاني مثل محفوظ النحناح زادَ الله ذِكرَه حُسنا، **فقد كانت للرجل أنفاس المتجردين، ونظرات المتأملين، وطبيعة المنطقيين، واستطاع من خلال الهدوء أن يبعث حركة، وبالمقارنة أن يستنتج معادلة، وبامتصاص غضبات الجهالة أن يعصم من حلولِ يُبوسةٍ صلدة، فترك الأيام ندية بعده.**

وقد توسّعَ الأخيارُ في ذكر منقبته في صون الدماء ومنع الانحدار إلى مسلسلات الانتقام، ولكن فقهه الدعوي العام جلي يُشير إلى وعي قيادي متقدم، ومحاكمات عقلية لمسائل تتزين عندها الشبهة لتُغزي بإغرابٍ أو ميلٍ إلى مرجوح أو جنوح لرخصة، ولكن إباء محفوظ حفظ له وتيرة العزيمة والانتماء إلى جمهور الفقهاء دون مستعجليهم أو المبطئين.

● وكانت قضية (الجزأرة) من أوضح إشارات غلبة عقلانيته على عاطفيةٍ استبدت يوماً ما، **وصَخب الجزأرة أريد للإسلاميين الجزائريين فيه أن يقطعوا حبال الوصل مع العالمين العربي والإسلامي، وأن يحصروا أنفسهم في دائرة الجزائر فقط، في الولاء والفكر والشعور،** مماشاة لأنساقٍ حيوية كاملة تُدخل في سياقها: الشخصية الجزائرية، والتراث الجزائري، والتجربة الجزائرية، والتاريخ الجزائري، والقيادة الجزائرية، والمستقبل الجزائري، فأدرك محفوظ ما وراء الاستطراد مع هذا المنطق من تثبيط يعزل الجيل الجزائري الصاعد والنشاط

الجزائري الشعبي والحكومي عن المسيرة العربية والإسلامية العامة، فتمرّد، وأبى، ورأى ضرورة مماشاة الفكر الوحدوي الجامع المخترق للحدود، وأنكر كفاية الرصيد المحلي، وشجّع على نهلٍ من ينابيع خير تنتشر من الرباط إلى ما بعد الهند واندونيسيا، وفهمنا من إصراره أنه يرى في وجود القلب الدعوي المنفتح المُنكِر للانغلاق (تمرداً على الانكفاء اللاواعي) الذي علقت به أشواك من التبرم الذي يبديه الجيل البربري العلماني المنحاز للفرانكفونية، وبعد مرور ربع قرن على عناد محفوظ بدأنا ندرك عطايا السعة الجزائرية المنسابة على رسلها مع الوحدويات العابرة للحدود، وخيرية الانعتاق من وسوسة الانكفاء، وذلك واضح في قسمات وجوه الجيل الذي ربّاه، والبسمات التي يشيعونها، وحرصهم على الاقتباس من الدعوة الإسلامية العالمية، ورفض العبوس والانتحاء الجانبي، وما دخل على الجزائر عبر الانفتاح من فكر غريبٍ ونمطٍ مؤذٍ لا يدخل في نطاق مسؤولية محفوظ أبداً، وإنما هي مسؤولية آخرين لم يدركوا معنى وسطيته وخطته التربوية التي تعتمد الانتقاء والاختيار المعياري الذي يكفل نقاء المقتبس.

- ولمحفوظ براعة خططية أخرى تجلت في تمرده على التجميع السائب، يوم آمن بالتنظيم المَسُوس بسياسة الحزم والرقابة، وأنكر وبالغ في إنكار الاكتفاء ببعث (تيار) إسلامي عريض منفتح، ورأى في ليونة الارتباط خطراً بإمكانه أن يحرف العمل والمجموعة ويثير التوترات مع الحكومة والمجتمع من دون سبب، وذلك ما حدث، وهو الذي يُفسر الاستيراد العشوائي للأفكار والرؤى حين لم يلتزم انفتاح غيره بالوسطية ومعاييرها، والخطط الدعوية وقواعد العمل هي شروط متكاملة تؤخذ حزمة واحدة ولا يليق لها أن تتجزأ، فوجود العمل التنظيمي هو شرط نجاح التمرد على الجزأرة والخروج من الخصوصية المحلية المحدودة إلى الانفتاح العريض، لأن التنظيم تحكمه قوانين وتربيات وتدابير منهجية مترابطة تجعل الاقتباس سليماً وتحت نظر رقابي وغير بعيد عن أنفاس المجربين الخبراء، بينما في صناعة التيار احتمالاتُ انفلاتٍ وفوضويةٍ وضعف سيطرة وأهوائية تؤدي فيما بعد إلى تشرذم وشِلَلية وكيفية وارتجالية ورغبات شبابية تهورية، وذلك هو الذي

آلت إليه تربية سريعة موسمية حين جوبهت بمكر المنافسين، فلم تستطع التعامل المرن مع الحصار والالتفاف على الكيد، وانزلقت بسرعة إلى حرب الاستنزاف، ونجا تنظيم محفوظ من مثل ذلك، وانضبط، وانتظر، ومال برأسه قليلاً حتى مرّت العاصفة، ثم انتصب ثانية مقتدراً مؤهلاً لمعركة ثانية، في حين التهى التيار بمناوشات أريدت عن عمد لتصرف عن أصل التوجه، وهذه تقديرات لا تنبغي في حينها إلا لعقلية قيادية مستوعبة للمنظر العام المرئي والغائب، وتعين عليها فراسة مستحكمة، وذلك هو الذي هُدي إليه محفوظ فأصاب، ومضى درسٌ بليغ في امتياز التنظيم على التيار، والاكتشاف اللاحق لمثل هذا المعنى في أيام العافية ليس له كبير دلالة، ولكن أن يكتشفه محفوظ إذ المحنة جاثمة والعاصفة الهوجاء تقتلع الثوابت: له كل الدلالات، وذلك ملمح من ملامح شخصية محفوظ يذهل عن رؤيته الغافلون.

● ومن فنه في التوغل الآمن: إيمانه بإمكان العمل الانسيابي في داخل الآليات الديمقراطية المتاحة، فهناك دستور وأحزاب وبرلمان وجهاز حكومي يمكن أن ينفذ له من خلال حلف وعملية تبادل منافع تحقق الغطاء اللازم لتحرك تدريجي محدود ضمن سيطرة مراكز القوى الاستراتيجية المالكة لسلطة القرارات الحاسمة، وكل مجموعة سياسية في مثل هذه التركيبة بين حالين واحتمالين: التقدم البطيء عبر المشاركات والتحالفات، لتحقيق مجال نشاط قانوني يمنع التحرش، أو الاعتزال السلبي الذي قد يتطور تحت الضغوط العاطفية إلى معارضة فيها اصطدام وتحديات، ولكل حالٍ منطقٌ ولغةُ جدلٍ يختلط فيها السلب والإيجاب، فترجّح عند محفوظ السلوك الأول بسبب تعب شعب الجزائر من الانفلات الأمني ونزيف الدماء، ورأى وجوب (مُهلة) استدراكية وبنائية يتحقق أثناءها التطوير والتخصص واستكمال النقص ومدّ الجذور وإقامة العلاقات والاقتراب من جمهور الناس، وفي تقديري أنه كان مصيباً جداً في فهمه لموقعه وموقع جماعته من المنظر الشامل، ولكن الحاصل التنفيذي العام لخطته هذه جاز عليه خلل وفتور، بسبب بقيةٍ من مزاج عاطفي في الشعب الجزائري يميل بها إلى الغضبات

والمفاصلات، ويطلب المعجزات الكبيرة في الزمن القصير، ولأن رحيل محفوظ دهم فجأة: استولت شيئةُ حَيرة، لمبالغة في أتباعه وجُنده في التعلق به، واعتقادهم تحقق الإلهام له ووفرة (الكارزمية) في طريقته القيادية إلى درجة قارفوا فيها نوعاً من الاتكالية عليه ما كان يريدها ولا يصححها لهم، ومع ذلك فإن عَجْزَ التنفيذ عن مجارة الطموح لم يُسبب تراجعاً، بل استعداداً للتصويب، وآية ذلك استنفار الخَلَف لأنفسهم لاكتشاف مداخل تطوير القُدرة التنافسية، وفي الجزائر اليوم بعض فراغٍ يساعدهم على العودة إلى الوتيرة النابضة، وإتقان الاستنفار، وقد اجتمعت النصائح توصي بتربية إيمانية زهدية تمنع احتمالات تسرب الوساوس الدنيوية التي تغزو الصف الإسلامي من خلال سعة الامتزاج بالمحيط السياسي والتسرب الخفي لإيحاء الأُبهة الوظيفية إلى نفوس الباذلين، وفراستي أنّ أصالة البداية التي حرص عليها محفوظ أن ترفل فيها جماعته ستكون هي الغالبة بحول الله، وأن الفتور بعده نفضة، وأن البركات الربانية ستحل في الدار، لسلامة النوايا وبراءة القلوب ونقاء المضمَر، ولا نعلم بحمد الله إلا خيراً، ويخسأ الحاسد، ففي الجزائر رجال.

● **ويترجح ذلك بما كان من طريقة محفوظ في بناء وتكوين (الطبقة القيادية الجماعية الواسعة)، وكانت بداية منقبته هذه: نصيحة من جمهرة الإسناد الخارجية التي ظاهرته، وأنصت لها واستوعبها مع بداية النشأة قبل ربع قرن، فلم يؤمن باستبداد وتفرّد، واستولت عليه حماسة جيدة لتنفيذ منهجية الدورات التربوية التطويرية، بآفاقها الإدارية والتخطيطية، وتوعيتها السياسية، ومقولات الفكر الإسلامي المتقدم، والفقه الشرعي المقارن، وبها استطاع وفي وقت مبكر أن يضع عن يمينه زمراً من الثقات الوعاة والأعوان المكافئين، وكان ذلك منه نعم الاستعداد ليوم الحاجة التي بدت عند رحيله رحمه الله، وبها سجّل نقطة امتياز تتيح لنا أن نرويها الآن عند التغني بمظاهر إبداعه.**

● وليست بأمرٍ خفي: ثقافته الشرعية التامة التي أبرأته من البدعة والتقليد والتأثيرات الاستشراقية في محيط فرنسي الثقافة، ونعرف ميزته هذه من خلال قياسه بأقرانه.

● وهذا الإيجاب: يزينه إتقان اللغة العربية وتدريسه لها، وفي ذلك إيماء لسبب عامل النُبل في شخصيته، فإن إجادة اللغة تمنح مهابة، ومن ذكرياتي معه أننا تداولنا يوماً خبر الجيم المخفّفة المعطّشة فأفادني بفوائد، رجعت بها إلى تحليقات طالب العلم حين يلين له مُعلّمه فيمنحه شيئاً مما حباه الله به، وشعرت ساعة كأنه أستاذي.

● فكل ذلك من امتيازات ومناقب محفوظ الباذل الصامت الفصيح، عليه رحمة الله). □□

٤ ميزان التصاخب

□□ رَفلت الأمة الإسلامية دهراً بمعنى الأخوّة الإسلامية الجامعة، و قامت علاقاتها السياسية و الاجتماعية على مبدأ التوحيد و الإيمان وإذعان الجميع للشرع و احكامه، لا على التمايز القومي، و استمر ذلك حتى أدرك جيل أساتذتنا الذين عاشوا أيام شبابهم في أول القرن العشرين و قبل الحرب العالمية الأولى بقية من بلك الأخوة الجميلة، و التصريح دراسته الجامعية في اسطنبول أيام السلطان عبد الحميد، فلم يلمس يوماً من الأيام فرقاً بين تركي و عربي و كردي و ألباني، و ما كان يدور في ذهن أحد شيء من ذلك، و إنما الانتساب إلى الإسلام الجامع، و الأستاذ القصاب سياسي عراقي مخضرم و صار رئيس مجلس النواب العراقي و من رجال الإدارة البارزين. و كان فضيلة الشيخ أمجد الزهاوي نبيل العراق يحدثنا رحمه الله عن شيء مثيل و يتأسف على افتراق شعوب الأمة. حتى الأستاذ طالب مشتاق الذي هو شيعي المذهب كتب في مذكراته هذه الملاحظة و أشار إلى براءة الطلاب في جامعة اسطمبول تلك الأيام من أي شعور قومي.

ثم حدثت الصيحات القومية التي بدأها الأتراك المعارضون، و سرت العدوى إلى العرب و الكرد و غيرهم، فاختلفت القلوب و السياسات، و انفتح باب عريض للتأويل و الخروج عن مفاد الشرع، فسرى الضعف إلى الجميع، و استبدت القوى العامية بنا.

● فلم يكن للحركة الإسلامية الحديثة و المعاصرة إزاء ذلك غير الاستعلاء على المشاعر القومية، و اتخاذ خطة التربية على معاني الأخوّة الإسلامية لما رأت الأيام النحسات تتوالى على أقوام الأمة الإسلامية حين أطاعت الذين برزوا فيها من الغلاة المسرفين، فإنه ليس من قوم إلا و ظهر فيهم متخبط، تعاطى سهم القومية الغالية، فعقر، و تولى بركنه يتهم الإسلام و يماري الدعوى على ما ترى، و يكون

لها عدواً، و يبسط لها يده و لسانه بالسوء، و لذلك أصبح من الواجب على أي جزء من أجزاء الدعوة أن يسعى إلى إحلال معاني الإخوة الإيمانية في أعضائه، وإذا تهاون في ذلك فإنه سيذوق و بال تساهله و تفريطه.

● و في خطة "الجامعة الإيمانية" يكون :أدب الأخوة" مترجماً في تناصح و تكافل و تحابب يجمع القلوب و يعلمها التحالم، إن لم يكن الحلم، إذا أبطأ المقصر و تجاوز الملحاح، مثلما يعلمها المكافأة و الوفاء و الشكر عند إسراع المبادرة، و لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة، و وضع له منهجاً بحيث(يرفع أخوتهم من مستوى الكلام و النظريات إلى الأفعال ة العليات).

● و رأى رحمه الله من تآخي الرعيل الأول ما أقرّ عينه حياً، و برهان وفاء محبيه من بعده على توالي أجيالهم أن يكونوا دوماً عند محاسن هذا الأدب، و أن يرجعوا إليه عند أول انتباهة إذا أنستهم الغفلات.

● إنها "نعمة الأخوة": يجعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثمن منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام، فيقول: (ما أعطي عبدٌ من بعد الإسلام خيراً من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم وُدّاً من أخيه: فليتمسك به.).

● و يسميها التابعي مالك بن دينار: "روح الدنيا"، فيقول: (لم يبقَ من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، و التهجد بالقرآن، و بيتٌ خال يذكر الله فيه.).

● و يكحر لها الشاعر وصف« الذخيرة »، فيقول:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة
و لكن إخوان الثقات الذخائر

● و لهذا كثرت توصية السلف بإتقان انتقاء الأخ الصاحب، لتصاب الذخيرة الحقة و الروح الحقة، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن: (إنّ لك من خليلك نصيباً، وإنّ لك نصيباً مِن ذِكر مَن أحببت، فتنقوا الإخوان و الأصحاب و المجالس.).

• فأما أولاً: فقد عمّموا صفة الخيرية بإطلاقٍ، كميزان في الانتقاء، و عبّروا عن ذلك بقولهم:

أنت في الناس تُقاس   بالذي اخترت خليلا
فاصحب الأخيار تعلو   و تنل ذِكراً جميلا

• ثم خصّصوا، ففسروا الخير بالتقوى، و قالوا:

نافِس إذا نافستَ في حكمة   آخِ إذا آخيت أهل التقى
ما خير من لا يُرجى نفعه   يوماً و لا يؤمن منه الأذى؟

□ ثم زادوا و ذهبوا أبعد، فعدّدوا صفاتهم، يعينوك على دقة الاختيار.

• أعلى صفاتهم: طيب القول. ذكره عمر رضي الله عنه فقال: (لولا أ، أسير في سبيل الله، أو أضع جبيني لله في التراب، أو أجالس قوماً يلتقطون طيّب القول كما يُلتقط طيّب الثمر: لأحببت أن أكون لحقت بالله.).

• و من صفاتهم أنّ أحدهم: (يرفع عنك ثقل التكلف، و تسقط بينكَ و بينه مُؤنة التحفظ.)، و كان جعفر الصادق رحمه الله يقول: (أثقل إخواني عليّ مَن يتكلف لي، و أتحفظ منه. و أخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.).

• و من صفاتهم: ترك حضيض الدراهم و السفليات، و السمو إلى العلا، و ضربوا، لذلك مثلاً: انتقاء الإمام أحمد بن حنبل لأصحابه، و ذلك حين يقول الذي يُطريه:

و إخوانه الأدنون كل موفق   بصير بأمر الله يسمو إلى العلا

• و من صفاتهم الإيثار، و هو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حيّاوي التميمي لإخوانه في العراق حين يقول:

أبداً أظل مع التقاة ، مع الدعاة العاملين
الناشرين لواء أحمدَ عالياً في العالمين
المتصفين المؤثرين على النفوس الآخرين
معهم أظل، مع التقاة، مع الدعاة المسلمين

● و من صفاتهم، بذل النصح، فأحدهم: (صالحٌ يعاونك في دين الله، و ينصحك في الله.).

□ و يجمع هذه الصفات: النفع في الدين، فإنها الكلمة الجامعة المانعة.

□ و المادة الموجزة في قانون التآخي: يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، فيقول: (إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.).

□ فشأن كل داعية صاعد: أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه و علمه، و أن يقصد المجالس التي تنفع دينه، و لا يعرف مجالس اللغو و اللهو و قتل الفراغ.

● و شرَحَ ذلك شاعر الإسلام إقبال بشرط حاسم، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده، فقال يدعو الله عز و جل:

هب نجياً يا ولي النعمةِ

مُحرِماً يُدركُ ما في فِطرتي

هَب نجياً لَقِناً ذا جُنةٍ

ليس بالدنيا له من صلةِ

□ فهذا جماع القول: إن صاحبَ الداعية المسلم: داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة، بل صلته بالآخرة، و شوقه إلى الجنة، و بينه و بين الدنيا انقطاع و جفاء.

إنْ تحريت عنه: وجدته.

إنه صاحبك. آخه و أحببه، و اصحبه، و أعطه مثل الذي يعطيك.

و إلا فإنك أنت العاجز، فإنه كان يُقال: (اعجز الناس من فرّط في كلب الإخوان، و أعجز منه مَن ضيّع مَن ظفر بهم.).

فاطلب الإخوان: ترتفع عنك صفة العجز، هدانا الله و إياك □□

□□ من رفق المربي بتلامذته أن يعيد ويكرر عليهم كبار المعاني بأسانيدَ أخرى وشواهدَ جديدة وأدلة تزيد القناعة والوضوح ، وتقذف في القلب ثقة بصواب الحكمة والوصية التي يحب المربي أن يتحلى بها أصحابه ، وما زال مثل هذا الإثراء للمعاني بالقصص الواعظة والمنطق الإيماني ديدن الفكر وشغل الناصحين ، ومن لم تلتقط حواسه الاستقبالية مغزى حكاية : فلعله يتناوله من رواية ثانية ، ومن لم تهزه قصيدة ، فلربما تأسره أبيات مثيلة ، وتنويع الكلمات والألفاظ والمصطلحات والشعارات يؤدي إلى فوائد مكملة للفحوى ، وعلى ذلك مدار التصنيف والتأليف ، وهذا هو عُرف التعليم والتدريب ، وأصل المكتبة الإسلامية : خلاصةٌ مُركّزة ، وكتلة حقائق أساسية ، ثم وسّعها استئناف العرض ، وإبداع الأسلوب ، ومنهج التناول ، وذوق الإقران بين القضايا ، ومعدن اللغة ، ونسبية الإنزال على الواقع بحسب المتغيرات والطوارئ ، والكشف عن علاقة خفية أو مكنون مستتر يُظهرهما تحليلٌ نفسي أو إحصاءٌ رقمي أو سرّ تاريخي ، ولكل امرئ ما يليق ، من بين مدققٍ يبهره الاستنباط ، وسهل ينساب مع التبسيط .

□ حِكمة الحركات الحيوية تدفع المؤمن نحو السيطرة على الدنيا

□ وأول استئناف العلم : أن يوقن الداعية أن الدنيا قليلة الوفاء ، ومن أخلاقها القلق . أو كما قال ابن أبي حازم في بيت شعر موصول :

(إنها الدنيا ـ فلا تحفَل بها ـ : جزرٌ ومدٌ) .

والفضولي يورد نفسه المهالك ، والذي لا يقنع أيضاً ، فإنهما يتطلعان إلى حيازة شيء لا يناسبهما لمجرد أنهما يريانه عند الغير ، دون إدراك الفروق . وبعض ذراري المسلمين يرون أهل الغرب في عيش ميسور ، وعلى مقعد وثير ،

فتكون منهم هجرة إلى ديارهم ، أو التشبّه بعلمانيتهم ، وينسون الفرق بين المسلم والنصراني ، فيؤدي بهم ذلك إلى نسيان الصلاة ، ويخسرون دنياهم ، لارتفاع البركة ، وآخرتهم ، لضعف الدين ، ولو لبثوا مع عمل دعوي وحرصوا على نمط تنموي يصنع الحياة : فلربما نالوا التوفيق .

● وقد ضرب البدو لمثل هذا مثلاً [1] وجعلوه كالنعامة البلهاء التي رأت للوعل قرناً ، فغارت منه فأتت مرابعهم تطلب منهم أن يصوغوا لها قروناً ، فصادوها وذبحوها وأكلوها ، وقد كانت لها آذان سامعة حساسة ، فلا على آذانها حافظت ، ولا القرون حازت ..

مثل النعامة كانت ، وهي سائمةٌ
أذناءُ حتى زهاها الحَيْنُ والجُبُنُ
جاءت لتشريَ قرناً أو تعوّضَه
والدهرُ فيه رباحُ البيع والغَبَنُ
فقيل ، إذ نال ظُلمٌ ثمّت ، اصطُلِمَت
إلى الصماخ ، فلا قَرْنٌ ولا أذنُ

● من أجل ذلك كانت الوصية السائرة بين أجيال السلف : قلة الحفاوة بالدنيا ، والتحذير منها ، وهي وصية صحيحة إذا فُهمت بهذه الحدود التي تريد حفظ دين الناس ونجاتهم ، لأن البطر غالباً ما يستولي على الغني المتمول ويكون أقرب إلى الغفلة ، ولعل النصوص الشعرية والحِكَم البلاغية في ذم الدنيا والتحذير منها بلغت عشرة آلاف بيت في شعر المؤمنين ، وألوف الأقوال ، وليس محمد بن الجنّان غير واحد من مئات أمثاله حين يقول : [2]

---

(١) لسان العرب ١/ ٥١٧ .

(٢) ديوان ابن الجنّان / ٩٣ جمع وتحقيق د. منجد مصطفى .

لـو كـان يعلـمُ راغـبٌ مـا مُنتهـى

دار الفنـاء ؟ لكـان فيهـا يزهـدُ

والعيشُ في الأخرى ، وعيشُ بني الـدُنا

عـيشٌ تُنغـصُه الحـوادثُ أنكـدُ

فلـم الغـرور ؟ وكيـف يُخـدعُ عاقـلٌ

بزخارفٍ هـي بهـرجٌ إذ تُنقدُ ؟

● وأما عند وفور الانتباه وحياة القلوب ، وعمران الحياة الاجتماعية بتواصي المؤمنين بالحق والصبر ، وفهم وظيفة المال في خدمة المسلم وقضايا الإسلام ، وتداوله في الأيادي دون استقراره في القلوب : فإن السعي لحيازة المال وأشكال المنافع الدنيوية يتحول إلى عبادة ، وتكون التنمية أمثل عمل يقوم به مؤمن ، لكن ذلك يكون حين يوضع المال في مكانه الإنتاجي الصحيح ، وأما البهرج والإسراف في الزينة فتبقى على أصل الكراهة والذم ، ومن مثل هذا التقدير النسبي الصائب ينطلق تفسير المدّ والجزر في الدنيا ، فإن مدّها ووفورها يجب أن لا يُخرج المسلم إلى ولع بها وغفلة ونسيان حق الفقير والمصالح العامة وإسناد الجهاد ، كما أن جزرها ينبغي أن لا يدفعه نحو يأس وتعطل عن محاولة الكسب والإنماء ، ولو أن يبدأ ببيع حبل أو حصير ، كما في النداء لصناعة الحياة .

● وهذه المعاني هي التي يجمعها شعار (الإيمانُ رسوخ) .

□ في المدار الرفيع

□ وهذا الكدح التنموي الإنتاجي إنما هو عملية بناء وإبداء أثر وتحوّل إلى منزلة أحسن ، ولذلك يجب أن تكون بدايته قناعة تستولي على من يريد أن ينجح بترك الوصف الرديء والمنزلة الهابطة ، والحرص على المنازل العالية ، وتأسيس عزيمة الصعود إلى مستواها ، والسمو إلى ذُراها ، والتعفف عن كسل وسُفليات ولبثٍ مع

صغائر ، على طريقة الشاعر حين يرشحك للأجود العالي ويقول : [٣]

وَسامِ جَسيماتِ الأمور ، ولا تكن مُسفاً ، إلى ما دقّ منهنّ : دانيا

سام : اطلب السمو .

اسفّ الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

وفي الحديث : إن الله تبارك وتعالى يُحِب معاليَ الأمور ويُبْغِضُ سفسافها .

والسفساف : الرديء من كل شيء ، والأمرُ الحقير ، وكلُّ عمل دون الإحكام .

وفي حديث آخر : إن الله رضيَ لكم مكارم الأخلاق وكره لكم سفسافها .

● والمؤمن : عندما يتسلق جدار العصامية ، ويكون الفوقي : يقال له : إنّه في (سُورَة) ، ففي لسان العرب : [٤]

(السُّورة : الرِّفعة ، وبها سُميت السورة من القرآن ، أي : رفعة وخير) ونقل عن (ابن الأعرابي : السورة من القرآن معناها الرفعة ، لإجلال القرآن . قال ذلك جماعة من أهل اللغة .

قال : ويقال للرجل : سَوْسَرْ : إذا أمرته بمعالي الأمور .

وسور الإبل : كرامها ، حكاه ابن دريد) (وقيل : هي الصلبة الشديدة منها) . (وكل مرتفع سُور) (ومنه سور المدينة) وهي أيضاً : المنزلة ، والدرجة ، (لأنها درجة إلى غيرها) . وأعطاك الله سُوْرة : (معناه : أعطاك رفعة وشرفاً ومنزلة) (وتسوّر الحائط : تسلّقه) .

● ولله حكمة بالغة ، فإن الداعية اليوم حين يرى إسفاف الناس وحومهم حول أمور تافهة وفي لهو الأغاني والغفلة : يحزن ، ويتلف نفسه ، وينسى أن المنظر الحيوي لابد أن يودع الله فيه التكامل من أجل أن يكون مفهوماً ، وأن سمو المؤمن لا يتبين من دون مقارنة بهبوط الفاسق ، فلولا شخوص العيب و ظهوره ما تميّزت رفعة الجادّ المصلح ، ومعنى ذلك أنه قدر الله النافذ يوزع الناس في مراتب العلو والنزول ، والامتلاء والفراغ ، والإنتاج والتعطل ، والإيجابية والسلبية ، والجهاد والخنوع ، وقد أمرنا الشرع والتوحيد أن نصارع

---

(٣) (٤) لسان العرب ٢/١٥٨/٢٣٨ .

قدر السوء هذا بأقدار الخير ، وخطتنا الإصلاحية هي ترجمة لهذا الصراع ، ولكن بعض نباهة المؤمن تكمن أيضاً في فهم مشيئة الله في توزيع الحظوظ والتوفيقات والهمم ، وأن الذي لا يريد الله به خيراً : يُركسه ويسلبه النية ، ويديره في المستوى المنخفض ، ويتيح لـه رقيعاً يزامله ويؤثر فيه ويزين لـه القعود عن طلب الساميات، وما انتكس خائب إلا وبطل القصة رقيع يختفي في صورة صديق ، فيؤذيه ، أو تكون بنت سوء حسناء ، فيشتري جمالها ، ويبيع المعالي ، وتُغويه .

● وهذه البصائر يحويها شعار (الإصلاح رفعة) .

● ومع كل يوم ، ومع مرور كل تجربة : يزداد اليقين العملي للمؤمن الذي يمارس مهنة التحليق ، وأن (الإصلاح) هو أسمى وظيفة ، يؤديها مع أقارب أو جيران أو في معمل أو سوق أو مدرسة أو جامعة أو ديوان أو برلمان ، أو حتى مع البدو بعيداً عن الحضَر ، وأن دونها وظائف الوزارة والإدارة والسفارة ، لذلك ينوي الاستعانة بمثل هذه المناصب إن جاءته عفواً على تجويد ممارسته الإصلاحية من خلالها ، من دون استشراف لها ، ويقبلها إن أتاحها له ولي أمرٍ صالح ، فإنها وظائف أدنى تعين على إتمام وظيفة الإصلاح الأعلى ، وأما إن عرضها عليه مغامر، مشروطة بشرط المسايرة و التملق: فإنّ توليها ينقلب إلى عارٍ، فيربأ بنفسه ، ويلتزم العفاف ، ويكون مع القائل [٥] :

ولستُ وإن أدنيتُ يوماً ببائعٍ
خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبّبِ
وقد عدّه قوم تجارة رابح
ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

فهو في المنصب الإصلاحي فوق الإمارة والوزارة ، ولن يحرفه إغراء .

---

(٥) العقد الفريد ١/ ٦٨ .

❑ التأثير الإصلاحي للظاهرة القيادية

❑ لكن جرت عادة الحياة بإرادة الله خالقها : أن لا يتيح (السمو الإصلاحي) بسهولة لفرد مستقل ، إنما لمجموعة إيمانية (تتواصى) بالفضائل والأخلاق وخُطة تقويم الاعوجاج ، ثم لأن الله تعالى خلق البشر طباعاً شتى ومنازل متباينة وبعضهم أذكى وأصبر وأشجع من بعض : فإنّ هذه المجموعة تخضع لسُنن الحياة وظواهرها ، وسرعان ما تنقسم إلى صنفين : (قياديين) و (أتباعاً) أو (جنوداً) ، بحكم الضرورة قبل أن تكون منهجية تخطيطية ، رضي الطرفان أم توهموا عدم الرضا ، وشعروا بهذا الفرز والتميّز وحكم الواقع أم لم يشعروا ، لأن الأصل في ذلك إنما هو وجود التأثير من بعض على بعض ، وتبعية الأضعف للأقوى الأذكى الأعلم ، وليست ظاهرة القيادة هي مجرد (صورة) يمكن افتعالها وتكلفها ، بل تنساب وتسترسل وفق ظاهرة (الانتخاب الطبيعي) في الحركة الحيوية ، وهي تبرز تلقائياً ، وإنما الوعي والاختيار والتعاقد والبيعة أمور تؤكدها وتكمل نقصها وليست هي التي تؤسسها ، وبذلك ينفتح باب التجويد والإتقان والتطوير من خلال الارتفاع بمستوى صفات القياديين ، كما يمكن مثل ذلك من إحكام الصنعة التنفيذية عبر تطوير مثيل لصفات الموالين والجنود .

❑ طبائع المعدن الصافي

❑ وذلك الذي يجعلنا نتحدر مع (عُشارية الوفاء القيادي) لفضل الله وشكره على ما أنعم عليهم من ميزة حيازة خصائص التفضيل والتفوق ، فإن كل ذلك هو محض هبة ربانية مثل المال وأنواع الرزق ، ولو شاء لجعلهم أقل في الذكاء والصبر وخصال الثبات النفسي .

وشكر القدوة الأسوة تحويه عشر رقائق ندية :

- **الخصلة القيادية الأولى : رؤية فضل الله تعالى عليه .**

فأخلاق القائد الدعوي الحرّ تدعوه أن يستحضر فضل الله تعالى ، والحقائق ، والتيسيرات القدرية ، وعطايا البركة الربانية ، وبذل الجمهرة التي معه ، وأن لا يشعر بإدلال وامتنان وفوقية ، بل عليه أن يبالغ في التواضع ونسبة الخير كله إلى الله ، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما مدحه حبيب بن عاصم المحاربي ، فقال عمر : (ويلك لو كنتُ أنفقتُ على المسلمين من مالي ومال أبي : لكنتُ حَرَىً حتى مضت ، ولكن أنفقتُ على المسلمين من مالهم) .[٦]

وقوله حرى : أي حرياً بذلك وخليقاً .

فالفضل أولاً وآخراً لله تعالى ، وإنما يجعلنا سبباً لإجرائه وظهوره .

● وذلك هو معنى شعار (التألّهُ منطلقٌ) .

وتعبير التألّه يعني : التضرع للإله وعبادته والتوجه بالأعمال إليه واستحضار معنى ألوهيته ، والسلف أكثر استعمالاً له منا .

● الخصلة القيادية الثانية : قبول المعاتبة والنقد التقويمي .

وهي خصلة عُمرية فاروقية أيضاً .

والداعية إذا عوتب وانتقده الناقدون ونسبوا له الخطأ والتقصير : فإن عليه الإنصات وحسن الاستماع للشكوى ، ولا تأخذه عزة يرفض عندها ملاحظات إخوانه ويُصر ، وكأنه يدعي العصمة ، بل يكون مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له عمران بن سوادة : (أربع خصال عاتَبَتْكَ عليها رعيتُك. فوضع عُودَ الدِرَّة ثم ذقَن عليها وقال : هات .).

(يقال : ذقَن على يده ، وعلى عصاه ، بالتشديد والتخفيف : إذا وضعه تحت ذقَنه واتكأ عليه .).[٧]

وهو منظر حيوي خالد يصنعه المفكّر العميق التأمل ،والمستمع الصبور الجيد الإنصات،وينبغي أن يكون من علامات الدعاة الأذكياء ، والقادة أهل الإنصاف.

---

(٦) المغانم المطابة في أخبار طابة للفيروزآبادي ٣/ ٩٥٦ .

(٧) لسان العرب ١/ ١٠٧١ .

وليس يعنينا موضوع هذا العتاب ، وماذا كان اعتراض الرعية ، لأن الشاهد لا يكمن فيه ، بل في الاستعداد العمري السريع لقبول العتاب أياً كان .

ومن هذا الجذر كان استنباط شعار (الحوارُ كَشفٌ) .

● وكمال ذلك الإصغاء والنقاش إنما يكون في العفو والتجاوز ، من الطرفين، فإن من حسنات سعة الصدر وعيوب العتاب أن يكون :

مُـــذينُ الإغـــضاءِ مَوْصـــولُ

ومُـــديمُ العَتْـــبِ مَملـــولُ

والداعية يحرص على أن يكون بينه وبين الناس وبقية المؤمنين صلة وعلاقة وحال خيرية جارية لا تنقطع ، ومفتاح ذلك الإغضاء عن الزلات والتقصيرات ، وأن يكون إلى السماحة أقرب ، ويتخذ التناسي سياسة .

● الخصلة الثالثة : الحِلمُ ، والتنازل عن الحق الشخصي الثابت .

وهذه قضية نسبية ، وربما تقتضي السياسة ورعاية المصلحة العامة نوعاً من الحزم أحياناً والتضييق على ذي الإساءة ، ولكن معظم الأحوال ترجح الحلم وإعانة صاحب الكبوة ، ولا يسوغ للقائد الدعوي إذا حصلت فتنة وخلاف أن يستطرد في الغضب والملامة والقطيعة مهما كان محقاً ، بل يصفح ويقلب صفحة ، ويحيل القضية من سجل الحاضر إلى سجل التاريخ والذكرى ، ويكون له وللمخالف معاً موعظة في قصة معاوية لما عاتب الأحنف على هفوات منه فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين : لِمَ تُرُدّ الأمور على أعقابها ؟

لئن شئت لنستصفينّ كدر قلوبنا بصفو حلمك !

قال : فإني أفعل .

فحِلمُ الأمير مبتدأ الاستئناف الإيجابي ، واستعداد ذي المراء للصفاء هو مدرج معاودة الارتقاء .

● ومن ثمّ كان الشعار (الحِلمُ ارتقاء) .

● الخصلة الرابعة : البساطة والتواضع .

بأن يكون على مذهب الأمير آق سنقر البرسقي قائد جيوش الخلافة زمن المسترشد ، فإنه كان مع عُلو همته وجهاده : متواضعاً ، وقد قال أحد غلمانه (كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد) .

قال: (فرأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبَر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به).

قال: (فلما رأيته قمت إليه لآخذ الإبريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين ارجع إلى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الإبريق من يده ، فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ، ثم توضأ ووقف يصلي) .[8]

ولصواب مثل هذا التواضع صار أصلاً من أصول التربية الدعوية المعاصرة نرجو أن لا تنحت أيام الرخاء منه شيئاً ، فإن البركة يؤذن لها أن تستمر ما كان الدعاة على سنّة البساطة والتواضع وابتذال النفس ، لكن مع كل جزيئة تكبّر وإدلال وإظهار أستاذية وفوقية ورسوم رئاسة : ترتفع مثاقيل من البركة الربانية ، حتى يسود العجز ، وتكون يبوسة العلاقات ، ويسومنا جفاف المشاعر أنواعاً من العذاب .

● وذلك منشأ شعار (العفويةُ نِعمة) .

● **الخصلة الخامسة : خفّة المؤونة وقلّة الطلبات .**

فالذي يريد تحريك الحياة : عليه أن يقترب من الناس ، ليستعير طاقاتهم في العملية التحريكية ، لذلك ينبغي أن يكون خفيف الظل ولا يكلفهم شيئاً من خدمته إذا كان يستطيع الاستغناء عن معونتهم ، بل يحكر كل جهودهم للقضايا العامة ، ليكون منهم الاندفاع في البذل ، ويطفق يقول :[9]

---

(٨) تاريخ حلب لابن العديم ، لكن نقلته عن كتاب (الحشيشية) تأليف د. سهيل زكار/ ٣٦٥ .

(٩) الآداب الشرعية ٣/ ٣٢٤ .

الله أحمــــــدُ شــــــاكراً

فــــبلاؤه حــــسنٌ جميــــلُ

أصــبحتُ مــسروراً معــافى

بــين أنعمــــه أجــولُ

خلــواً مــن الأحــزان خــف

الظهــر يغنـــيني القليــلُ

والنـــاس كلــــهم لمـــن

خفّــت مؤونتـــه خليــلُ

بينما المستدين يتسبب في حرج يتلوه فتور ، والمستعين يفتح باب وسوسة .

● وكمنت هذه المعاني في شعار : (التقلّلُ إسراعٌ)

● الخصلة السادسة : تمكين السجيّة ، وهدر التكلفات .

وهذه صفةٌ دقيقة ،ولربما تختلط تفصيلات حيثياتها على الظاهري ومن يذهب إلى المبالغة في الحذر ، ولكن صاحب التجريب الطويل الذي توفرت له قصص جيلين وثلاثة من الدعاة يميل إلى الجفول من المتصنّع مهما كان جمال منظره رائقاً.

والذي يمارس التربية الدعوية يمرّ ولابد بنموذج المحتاط الذي يحرص على أن تكون جميع دقائق تصرفاته حسنة مرضية ، بحيث لا يترك لناقد مجالاً أن يكشف فيه عيبا ، أو يمسك عليه هفوة ، ومع ذلك يدرك قلب المربي أن ثمة تكلّف ، وتكلّف الأخلاق ومعاناتها معنى حسنٌ مقبول ديناً وعرفاً ، وهو مشكور ويجزيه الله خيراً ، بيد أنه يقعد بصاحبه عندما يكون التفاضل وتقدير درجات الخيرية وتقديم بعض على بعض والتوجه إلى الاختيار والترشيح لأداء المهام الدعوية ، فإنّ صاحب السجية الإحسانية الخطّاء ذا الفلتات أوثق منه وأعلى كعبا ، وفي تكليفه ضمان أوفر ، والله الضامن ، والاجتهاد التربوي يميل إلى التعامل الفطري الاسترسالي ، مع ما يتضمنه من هزّة محتملة ، فإنه أقرب إلى تناول الوفاء والإفاقة عند صدمة الاختلاف وتباين الرأي من الملتزم بتكلف ، وهذا ميزان من

دقائق الصنعة التربوية ، وهو مثيل لموازين الأدباء في تفضيل الشاعر المطبوع الذي يفلت منه الرديء على الشاعر الذي يرهق نفسه ويطيل النحت (وكان الأصمعي يعيب الحطيئة ويتعقبه ، فقيل له في ذلك ، فقال : وجدتُ شعره كله جيِّدا ، فدلّني على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع : إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه جيّده على رديئه.) [10] ، وهذا الميزان الأدبي لا يبرأ من تعسف ربما ينتقل بعضه إلى ميزاننا التربوي ، لأن الأمر يعتمد على اجتهاد وفراسة ليست لها عصمة ، ولكن الاحتياط أولى ، والميل مع الخطّاء الذي يقبل العتاب أصح ، لسواء نفسه وصفائها ، فإنه في الغالب لا ينطوي داخله على تعقيد ، بل هو سهل أوّاب ، ويستجيب لكل صواب .

- وذلك هو خبر شعار : (الفطرةُ رحمة).
- الخصلة السابعة : الانتساب للناس ومشاركتهم أعمالهم اليومية .

ونقل ابن حبان أنه (كان إبراهيم بن أدهم كريم النفس ، يخالط الناس بأخلاقهم ، ويأكل معهم . فربما اتخذ لهم الشواء والجواذبات والخبيص ، وربما خلا وأصحابه الذين يأنس بهم فيتصارعون . وكان يعمل عمل رجلين) [11] .

وإبراهيم زعيم شعبي ، ونبيل مجاهد كان أبناء جيله يقدمونه ويقتدون به ، ولذلك تكون أفعاله هذه كأنها مدرسة في تعليم أخلاق القيادة ، والحياة المعاصرة فيها أنواع من النشاط مبتكرة جديدة أضعاف حياة القدماء ، مثل المحاضرات والمهرجانات والدورات العلمية والندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية ، ومشاركات الانترنيت ، والظهور في القنوات الفضائية وتحقيقات الصحف ، ونشر الأشرطة المسموعة والمرئية ، وأمثال ذلك ، وكلها مجالات جيدة تتيح (نزول) القيادي إلى الناس ، ومشاركتهم في همومهم وتفكيرهم والعلم بمطالبهم، والجري مع أعرافهم ، فإذا عرف القيادي كيف يضيف بحضوره واندماجه مع ما يفعلون وما يقولون زخماً إلى مقدار قوتهم الذاتية في البيان والمطالبة : تعلّقوا به

---

(١٠) الخصائص لابن جني ٣/ ٢٨٢ .

(١١) روضة العقلاء لابن حبّان/ ١٧٤ .

وتحلّقوا حوله واتخذوه زعيماً ، وهو بحكمته يستطيع أن لا يُسف ، ولا يذهب كل مذهب يريدونه ، لأنّ حواره معهم بالحسنى يجعلهم أكثر واقعية وإنصافاً ، والمفروض أنه يملك من المنطق والحجج ما يجعلهم أبعد عن الغلو والمبالغة ، ويعلمهم أدب النقد ونسبية الصواب والرفق بالمخالف وبأهل التقصير ، وبهذا يكون انتسابه للناس ليس مجرد عامل ترويج له وتوكيد لمكانته ، بل عامل ترشيد للجمهور أيضاً ، وسبب اتئاد عند الغضبات ، ومصدر عقلانية عند الثورات والمظاهرات ، وينتصب واعظاً ينصح بالإقلال من الدلال .

- وحول هذه العطايا يحوم شعار (المعايشة ترشيد) .
- الخصلة الثامنة : المبادأة والريادة ودقّ أبواب المدعوين

فإن الداعية يمشي إلى حيث يكون المدعو يأخذ بوصية جميل بن معمر :

إن خير المواصلين صفاءً

من يوافي خليله حيثُ كانا

ونحن نفترض وفور الخيرية في المربي أكثر من التلميذ ، فيحرص على أن يوافيه في مسجده وبيته وملعبه ، ينصح ويعلّم ، ومن الباطل في الفقه الدعوي أن يتربع المربي على عرشٍ ويطلب من أصحاب البدايات موافاة المتوغلين أو مداناة دهاليز تنظيمه ، ولكن يكون لهم قريناً في الساحات المكشوفة وفي المرابع الاجتماعية العامة .

وفي النمط المعاصر للعمل يكون هذا المشي عنواناً لما هو أعظم منه وأكثر أهمية من مجرد الانتقال والخطو الذي هو جهد بدني أو من أخلاق التواضع ، وذلك بأن يكون هناك استيفاء موضوعي لحاجات المدعوين والتلامذة ، ومسارعة إلى توفير اللوازم ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالقيادي يوفر لهم الكتاب المنهجي ، والمثابة التي منها ينطلقون وإليها يرجعون ، وساحة اللعب ، ووسيلة النقل ، وشعور الأمن ، والوكالة عنهم إزاء إمام المسجد وبعض المصلين الذين يعترضون طريقهم جهلاً ، وعند كل مشكلة ، مع تدبير من يعين

الضعيف منهم في دروسه المدرسية ، وكفالة الفقير منهم حسب الاستطاعة ، فهذا كله من (موافاة الخليل) وجميل الصفاء الذي أشار إليه جميل .

● والشعار في ذلك : أن (الريادة دلالة) .

● الخصلة التاسعة : التحرّك والتجريب والإحاطة بالواقع .

على طريقة كُثَيِّر عَزّة حين يقول :[١٢]

لقد سرت شرقي البلاد وغربها
وقد ضربتني شمسُها وظُلُولُها

وهكذا عاشق الدعوة : يمسح العرصات ، ويطوف في نواحي المجتمع ، يعرف أخباره وأنساب أشرافه وأهل العلم والنجدة ، ولن يمهر حتى تضربه شمس لافحة تستخرج ما في أصل دماغه من أفكار إبداعية ، ثم تبردها ظلال وتنزع منها الثورية الجزافية الحارّة وتردها إلى منهجية العمل التخطيطي الهادئ الطويل الأنفاس .

والتجارب ربما يرويها الرواة ، فنحيط ببعض علمها ، ولكن رسوخها وكمال مفادها إنما تؤسسه المعاناة ، ويضاعفه فحص أجزاء الواقع والتفتيش عما في ثناياها من حكمة أو موعظة ، وأهل العراق يصفون هذا المجرّب السائح الذي جمع من خلال التنقل أنواع الوعي والدروس بأنه قد (تكسّرت قحوف الدنيا على رأسه) ، إشارة إلى كثرة الخدوش والضربات بسبب المغامرات وعمق التوغل بدافع الاكتشاف ومحاولة السبق إلى حيازة المنافع والأموال .

● ومن هنا ارتفع شعار : (الحركة بركة) .

● الخصلة العاشرة : التفنّن والإبداع الأخلاقي .

وذلك أن المعروف يزداد جمالاً إذا بذله المؤمن على غير مثال سابق، وأتاه على

(١٢) لسان العرب ٢/٦٤٧ .

سُنّةٍ من سنن الإبداع الطريف ، وهو الذي يشير إليه الشاعر الجعدي حين يقول : [١٣]

★وأخلاقُ وُدٌ ذهبَتها المذاهب★

أي أنها ليست على نمط واحد ووتيرة متكررة ، وإنما هي على طرائق متنوعة وأشكال كثيرة ، ويقوم كلّ منها شاهداً على وجود مذهب أخلاقي متميز فريد المثال وليس له شبيه نظير ، وتلك هي أخلاق دعاة الإسلام حين يربّون الناس ، فإنهم يجعلون كل مدعو حالة خاصة وله ما يناسبه .

إن عبارة (جعل كل تلميذ حالة خاصة) هي خلاصة تطور النظريات التربوية الدعوية المعاصرة ، ثم هي فحوى منهجية التربية الدعوية ، ولذلك لا يسوغ للقيادي التقليد ، وإنما يليق له الاجتهاد وتنويع الخطط والمعالجات النسبية ، والخروج من التعميم السهل إلى دراسة التلميذ على أنه (خلطة خاصة) من الأخلاق والأمزجة والمفاهيم والقُدرات والمعطيات ، وأنه محصلة القوى التي كان لها تأثير عليه في طفولته وبداية شبابه ، وواضح أن فيها السلب كما فيها الإيجاب، وقد صاغته الأقدار صياغة ربما تجعله نسخة فريدة لا شبيه لها، وطبائع الناس أن تسارر ، حذراً أو حياء من اطلاع الغير على العيوب ، ولذلك يكون المربي أمام واجب قراءة كتاب مغلق وليس بمفتوح ، وهذا الحال يضطره إلى الفراسة والتخمين والقياس وتحكيم القرائن والدلالات أكثر مما يُتاح له النظر المباشر الدقيق ، ومن هنا يكون احتمال الخطأ في الفهم ، ويلزم الإبداع في التحليل واستنباط الخفي الكثير من الظاهر القليل .

- وهذه الإشارات هي التي اجتمعت فأنتجت شعار : (الإبداع مفتاح) .

وفي كل قُطر : هناك من يريد أن يختصر الطريق ، وقد ساءه التسويف ، وله الأماني العراض ، وأمره أسهل مما يظن ، فإنه لو سعى إلى أن يضمن لنا ألفاً من القادة التربويين الذين تتمثل فيهم هذه الخصال العشر الأخلاقية ، في بلد يحوي

(١٣) لسان العرب ١/ ٣٤٩ .

عشرات ملايين الناس : نضمن له التفوق الاستراتيجي الحاسم على فُرقاء الساحة ، بإذن الله ، ولا تكون مهارات التخطيط وقواعد الوعي السياسي غير تكميلات وتحسينات لهذه الأصالة والصياغة النفسية السوية ، وهي التي تمثل الصناعة الثقيلة في التنمويات الدعوية ، وغيرها صناعات متوسطة وخفيفة ، نحرص عليها وتفيدنا ، ولكن الاستناد إنما يكون إلى الأساس الصلب ، وعادة العقلاء أن يكون مأواهم : الركن الشديد ..!

☐ وارض اللهم عن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

☐ ويقابل كل هذه الخصال القيادية : إمكان إحكام الصنعة التنفيذية لدى الجيل الواسع التابع ، وقد أوحت لنا مراقبة التطور الدعوي في كثير من البلدان قناعة بأن حكمة الله تعالى وزعت أنواع الصفات كمثل توزيعه الأرزاق ، وأن من الناس من يتقن من شأن السعي التنفيذي ما لا يستطيعه القيادي والمخطط والمفكر ، ويأت بتكميل كأنه خلق من أجله .

وتدور صفات الجنود والتلامذة والأتباع في سُباعية عامرة بالمعاني الأساسية ، وهي ألزم للقيادي ، وأوجب عليه ، ومن لم تحركه شدائد البدايات : لا يؤذن له أن يستوعب مغزى رحاب النهايات .

● **الصفة الأولى : نيل قبس من نور نوافل العبادة .**

والفروض كلها نور لصاحبها ، وقد أفلح من عاهد ربّه على أدائها وصدق، ولكن التهجد وأنواع النوافل لها نور يسري إلى الخارج ، ويطفح ، ويناله الجليس والرائي الراغب والصديق ، فيكون صاحب الوجه المنير سبباً لهداية غيره ، فيؤجر ، فيهبه الله مزيد هيبة ، يتولد منها مزيد تأثير ، فمزيد أجر ، وتكون متوالية الخير المتصاعدة .

وكان نور العبادة في جيل السلف أظهر ، لتمام انغماسهم وقلة الملهيات والصوارف وبساطة الحياة ، وفي مثل ذلك يقول الشاعر في وصف متهجد:[١٤]

(١٤) لسان العرب ١/ ٣٧٢.

كميشُ الإزار يجعل الليل إثمدا

ويغدو علينا مشرقاً غير واجم

وهو تعبير رمزي : أنه يجعل ظلام الليل مثل الكحل لعينه ، ويقصّر إزاره على طريقة أهل الزهد ، ويتعبد ، فيصبح مُشرق الوجه قد امتلأ نوراً ، ومبتسماً من غير وجوم وعبوس . وذلك هو سر اعتدال السلف وسماحة نفوسهم وسهولة تناوشهم للصالحات ، ثم صرنا نطيل النوم إلى الضحى ، ونستيقظ بوجوه متشنجة داكنة ، لنتبادل الاعتراضات واللوم ، فتتأزم الأحوال مع ساعة الصباح ، إذ الأطيار والشجر في أبهى حالاتها ، فلا نتجانس معها ، ويكون التعكير في ساشر النهار ، ثم نسهر مع مائة قناة صارفة ، وتتكرر قصة الغفلة اليومية .

● وفي مثل هذا المحيط الشعوري ولد شعار : (الزكاء أصل) .

● **الصفة الثانية : التأرجح بين الخوف والرجاء .**

وكل التأرجح في الحركة الحيوية مذموم ، ويشير إلى معنى سالب ، وأقل ذلك اضطراب الشخصية ، وضعف اليقين ، ما عدا هذا (التأرجح الإيجابي) ، فإنه من أصول الإيمان ، ولا بد للقلب أن يخفق ، ويصعد وينزل ، ويرتجف ثم ينساب ، وإحدى حالتي السكون ليست أقل إهلاكاً له من الأخرى ، فإن لبثه مع الخوف يعدم تطلعاته ويقتل الطموح ، واسترساله مع الرجاء يُركسه في التفريط والإبطاء، والمؤمنون أبعد عن هاتين الهاويتين ، وأبداً :

تراهم إذا ما شاهدوا موجِبَ الرجا

يدورون ما بين المخافة والذعر

فمحترقٌ بالوجد أو مُخْمِدٌ لهُ

بدمعٍ كما انهلّ السكوب من القطر

نداؤهم إن مس مسٌ من الجوى

جوانحهم : رُحماك ياكاشف الضرّ[١٥]

والداعية التنفيذي يرمي رمياته ، ويسعى ويبذل ، ثم يحيل كل ذلك إلى حسن ظنه بالله أن يقبل من عباده الصالحين ، ويبقى وجلاً أن يردّ الله عليه عمله ، وما بين الرجفة والسكون تكون التربية والتنمية والفنون .

- ومع كثرة الاهتزاز والترددات تكون (الاستقامة قرينة) تشير إلى اعتدال السمت .

- **الصفة الثالثة : الصبر على البلوى وأقدار السوء .**

واصل الإيمان : مصارعة قدر الشر بقدر الخير ما استطاع المبتلى إلى دفعه سبيلاً ، ولكنه إن بذل وسعه واتخذ الأسباب وجثم عليه السوء بالرغم من كفاحه له : استسلم لأمر الله ، وتأول حكمة خفية عليه يريدها رب العالمين ، وأبدى صبراً ، وسارع إلى توبة ، فلربما كان ورود السوء في هيئة عقاب له على معصية وتقصير ، ويشرع يحاور نفسه ويقول مراراً مع حُريث بن جبلة العُذري[١٦]:

تُريد أمراً فما تدري أعاجله

خيرٌ لنفسك أم ما فيه تأخيرُ

فاستقدر الله خيراً و ارضينْ به

فبينما العُسر إذ دارت مياسيرُ

فتغشاه سكينة ويتئد ، ويمنع الطيش أن يغزوه ، وتزداد طمأنينته كلما أكثر من تلاوة القرآن وآيات الصبر وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فيه وأقوال علماء الإسلام وشعرائه .

---

(١٥) لمحمد بن الجنان الأندلسي في ديوانه / ١٠٥ جمع وتحقيق د. منجد مصطفى .

(١٦) العقد الفريد ٣/ ١٤١ طبعة الدار العلمية .

والدعاة أكثر عباد الله تعرّضاً للبلوى ، يختبرهم الله بذلك ، والصبر لهم أليق .

● والشعار في ذلك : (الأقدارُ تصفية).

● الصفة الرابعة : الصدع بميزان الإسلام في الانحياز للثقة .

فإصلاح أخلاق الناس وتعديل موازينهم واجب دعوي دائم ، ولابد من إعادة تربية ، ومنع الرديء أن يستبد ويتحكم بالآخرين ، وأن نقول له كما قال له الشاعر :

وإنـي رأيتـك تنسى الـذمام
ولا قـدر عنـدك للمعـدم

وتجفـو الـشريف إذا مـا أقـلّ
وتُدْني الـدنيّ على الـدرهم

فهي المحنة الدائمة في قصة انقلاب الموازين ، وانتقاء الأراذل وتقديمهم في المناصب والمراكز بما معهم من دراهم ، والمحنة اليوم أعم ، فإنها بالأمس كانت في صورة مصلحي يوالي ويعادي بمقياس المال ، ولكنها الآن في الحالة الديمقراطية تأتي في صورة منح سواد الناس الأعظم أصواتهم الانتخابية لأصحاب الوعود الجوفاء بما معهم من دعاية فارغة تصنعها أموالهم ، وأما المرشح الشريف الفقير المقل الذي يجعل برنامجه الانتخابي : قول الفقه والإحصاء والعلم والتنمية : فهو مجفو متروك يرجع بقليل الأصوات ، وقد أذن في الناس أن حيّ على الفلاح ، ولكن أنامهم الخادع ، وغلبهم الرأي الجماهيري المائل مع الدعاية، و ربما تغلبهم شهوة الطعام الدسم الذي يأكلونه في الولائم الانتخابية ، وينسون مصالحهم فضلاً عن مصالح الأمة والمجتمع ، وفي البلاد الفقيرة يبيع الملايين أصواتهم بكيس فيه حفنة طعام وقنينة زيت وصابونة ، وهذا حال متأخر جداً ، وعلى الدعوة أن تبذل تربية سياسية لجمهور المسلمين كبذلها للتربية الدينية الأخلاقية .

هذه التربية السياسية قد يضع القادة معالمها ، ويكتبون فكرها ، ولكن تحقيقها في السواد الأعظم وأركان المجتمع أمر صعب عليهم ، لأن ذلك يتطلب إطالة الأنفاس في حوار تفصيلي كثيف ، وتبسيط لميكانيك التغيير ، وهي صنعة إنما يحسنها التنفيذيون من الدعاة ، ومجتمعنا متخلف لا يستطيع فهم آليات السياسة بسهولة ، ولا بد من تدرج وشرح متكرر عبر المخالطة .

● وضمن هذه المعاناة يولد شعار : (التوثيق أمانة) .

● **الصفة الخامسة : توقير الكبير والعالم والقيادي وأهل السابقة .**

وكان السلف يفعلون ذلك بحرص ، حتى قال الربيع المرادي : (والله ما اجترأتُ أن أشرب الماءَ والشافعي ينظر ، هيبة له .)[17] .

وكذلك ادركنا أنفسنا نحن الجيل المتوسط حين كنا شباباً ، فلما دخل عصر الكومبيوتر والألكترونيات ودورات الإدارة والإبداع : حصلت ثلمة ، تنفرج بطيئة ، ولا زال الخير ينشر ظلاله والمعروف يسيطر ، وإنما الخوف من المستقبل : أن يكون تقليد الأخلاق المستوردة تحت جناح الديمقراطية ووسائل التخصص ، فيحصل نشاز في السلوك والمنظر ، ومع كل خاطرة غرور من صاعد : ينكسر خاطر سابق ، فيهمس الخطر منذراً أن تُنحت البركة .

● وإنما يكون نزول النِعَم إذا رفعنا شعار : (الاحترام جمال) .

● **الصفة السادسة : مكافأة المحسن وشكره حتى لو كان فاسقاً .**

وذلك قول محمد بن الحنفية رحمه الله في الآية الكريمة في سورة الرحمن (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

قال : (هي مُسْجَلَةٌ للبر والفاجر ، يعني مرسلة مطلقة في الإحسان إلى كل احد، لم يُشترط فيها برٌ دون فاجر)[18] .

وهذا فقهٌ عليه ختمٌ علوي .

---

(١٧) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢٥٦/١ .

(١٨) لسان العرب ١٠٢/٢ .

بل أصول الاجتهاد في فقه الدعوة علمتني أنها مُسْجلة للكافر أيضاً إذا كان عادلاً وأحسنَ إلى المسلمين .

والدعوة الإسلامية تنشط اليوم في محيط معقد متشابك العلاقات ، والكيد المتنوع يغزوها ، من يهودي واستعماري وعلماني معاند ، ومن مصلحتنا تثمين كل مقالة حق وإنصاف يفوه بها إعلامي ، أو قضاء عادل يحكم به حاكم ، أو إيواء ورعاية يبديها رئيس ووزير ، مهما كان هؤلاء يسدرون في غفلة عن صلاة، وزين لهم الشيطان خمراً وحراماً ، لأن المصيبة عامة ، وأكثر الناس أسرى الشهوات ، والإحسان الذي اقترفوه يدل على نجابة الأصل واستمرار حياة العرق الفطري ، وصغائر الإحسان المبذولة في يوميات الحياة كثيرة جداً ، ولربما شكر القادة كبائره ، ولكن شكر الصغائر هي مهمة المنفذين المبثوثين في العرصات المتنوعة ، وجميل منهم أن يبدوا لباقة في شكر المحايد فضلاً عمن أسمعنا كلاماً عفيفاً ، فضلاً عمن أسدى معروفاً ووقف حامياً وأمر بحق أو صدقة وكان صديقاً ومَنَعَ العدوان .

- وشعار الوفاء المرفوع : (الإحسانُ إلزامٌ) بمعناه التعاقدي ، والتبادلي ، والتعاوضي ، وإن كان يليق لردّ الجميل أن يكون أوسع .
- الصفة السابعة : الانفتاح ، والظاهرية .

وقد قيل : (رأس العقوق : مُكاتمة الأدنين.) .

فإن الدعاة لا يعرفون أخلاق الباطنية ، ولا تأذن قلوبهم للهواجس أن تتحاور معها ، بل عادتنا الصراحة والتشاور ، وإعلان الواردات والخواطر ، وبضاعتنا مكشوفة ، ونمشي بطول قاماتنا وأحسابنا وشهادات تاريخنا ، وأثوابنا نقية ، وأذيالنا طاهرة ، وصدورنا صافية ، ولا نجيد المخاتلة ولا الالتفاف ، ونقدم حسن الظن ما استطعنا ، ونبذل الحُب لكل مسلم مستور لا يؤذينا ، وندعو للمخالف المنحرف بالهداية وليس بأن ينزل عليه العقاب ، وفي التأول مندوحة عندنا تبعدنا عن الاتهام ، ولما اجتمعت كل هذه الطباع فينا : ما عاد لأحد من الدعاة حق في أن يكتم عن أصحابه وقادته شعوراً أو سراً أو غضباً ،

فنحن أقرب الناس له وأدناهم منه ، وطرق المصارحة سالكة بيننا ، والتغافر ديدن المؤمنين ، وصار إضمار المعاني السلبية من العقوق ، والفكرة الساخطة مثل الخمر ، يشتد إسكارها بالتعتيق والختم عليها حتى يخرج العقل إلى طيش إذا فارقها ، والماء المنساب يتنفس ويبقى زلالا ، وأولى لأحدنا أن ينبسط ويثق ويطلب شرح الغموض وتفسير الإبهام الذي أدهشه ، فإن لم يفعل قتل فؤاده الشك ، ثم ما تزال تقلقه الحيرة وتستبد به حتى يغلق أبواباً كان الخير يَرِد منها إليه ويؤنسه ، وينعزل وحيداً ، يأكل الحزنُ رصيدَه .

● وقد مرّت بساحتنا عواصف ، جعلتنا نرفع شعار (الإسرارةُ شرارة).

□ فهذه الزوايا السبع هي التي تشكل هندسة الركن الشديد الذي يأوي إليه روّاد الطريق الأقصر ، ولو تحلّق ثلاثة آلاف من حملة هذه الأخلاق حول القياديين الألف أولئك : لتم التدوير والتكوير وارتفعت الأفلاك ودأبت المدارات ، ولاستدارت هالة ضخمةٌ حول هذا المركز المشحون بالطاقة ، تضيء الساحة ، فيهتدي بنورها الأسوياء ، ثم تبهر كل أعشى ، فيتسمّر مكانه لا يستطيع حراكا ، وينفسح المجال للحياة ، فتنبض .

□ واستقر على أربعٍ ... فهو مكين

□ ثم لهؤلاء الفريقين من القياديين والجنود معالم جامعة أربعة ، هي تكميل مثلما هي أساس ، ويكون لواذهم بها في الأول ، وعند التوسط ، وفي الآخر .

● المعلَم الأول : العلم الشرعي ، والثقافة العامة ، والمعارف .

والاكتيال من ذلك يضاعف مدى البصيرة الفطرية ، ويمنح للعاطفي عقلاً ، ويجمع شتات الصواب والمفاهيم في تنظير ذي تقعيد ، فيتحول الارتجال إلى طريقة وأسلوب ، فتولدُ بؤرةٌ منهجية، تتطور إلى حقيقة تخطيطية .

ولذلك : (كان محمد بن عبد الباقي الحنبلي الإمام يقول : ما من علم إلا وقد نظرتُ فيه وحصّلت منه الكلَّ أو البعض .)[19].

يشير بذلك إلى ثقافته الشمولية ، لا كمثل حنابلة الوقت : هم فقهاء فقط .

وإنما تتميز المعاني بأضدادها ، ولذلك قيل في الرمز إلى العلم :

★وعند غروب الشمس يُعرف فقدها★

لكن الغروب يعقبه شروق ، لذلك كان محمد بن الجنّان[20] أشد خوفاً من الجهل ، فجعله الروح التي قد لا ترجع ...

أما قد علمنا والعقولُ شواهدُ
بأنّ انقراض العلم أصلُ المهالك

إذا أذهب الله العلوم وأهلها
فما اللهُ للدهر الجهول بتاركِ

هل العلمُ إلا الروحُ،والخلق جثة؟
وما الجسم بعد الروح بالمتماسك

وأنكى ما في هذا الحال : أن افتقاد العلم لا يحرمنا فقط من آثاره الإيجابية بحيث يتولد فراغ حيادي ، وإنما يعكس الوجهة ، ويحصل إنتاجٌ سلبي بضاعف الطامة ، ويجعلها كبرى ..

★فذو الجهل يروي الجهلَ عن نظرائه★

فللجهل سُوق قائمة وروّاد ، وهم يستهلكونه وبه يحيون ، فتكون كتلة من اوهام الجاهليات معروضة دوماً تنافس الوحي والمعرفيات ، وتلك من ظواهر حركة الحياة ، لأن التضادّ محرك مهم ، ولابد أن يستند إلى فكر يقابل فكر الإسلام ، ليكون الصراع .

---

(١٩) الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/٢١٦ .

(٢٠) ديوان محمد بن الجنان / ١٢٦ .

وفي هذا ما يوجب على الدعاة إتقان العلم ومنطق الحوار وأصول الجَدَل ، لأنهم لا يصارعون جاهلاً صامتاً ، بل جاهلاً يتمشدق ، وينطلق من فلسفة ، ويتجمل بفنون وشِعر .

- ولمثل ذلك ارتفع شعار : (العلمُ حارس) .

- المعلم الثاني : اللبث عند هامش البَركات .

فإنك إن لم تطاوعك قدرتك على اقتراف تلمذة خاصة : فليس أقل من أن تمتزج مع الحياة العلمية العامة فتكون على هامش البركة ، فتجمع وتستوعب ويكون لك تعويض ، كالذي كان من أيوب السختياني يوم قال :[٢١]

(كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق ، فإني لفي سوق البصرة فإذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، واجتمع الناس إليه فما قدرتُ أنا على شيء أسأله ، ذهبت عني المسائل ، وشردت عني ، فقمت إلى جنب حماره ، فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه) .

وعكرمة تابعي ثقة من أصحاب ابن عباس .

والمجتمع الدعوي المعاصر يتيح فرصة عظيمة لكل شاب صاعد يريد العلم والثقافة والاكتيال من أنواع المعرفة ، بما يقدم من دورات ودروس ومحاضرات وندوات ، وبمن يدفعهم من القدوات إلى المخالطة والنزول إلى الساحة ، فيحصل خير كثير يجمعه أصحاب النوايا الصالحة والهمم العالية ، وغيره يسأل ويخطط ويضع هندسة التعليم ويتعب له ، وهو يستقبل ويُثري رصيده ويرفل بورود المعارف إليه مجاناً وبدون تكلف .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم : إنّ التشبه بالكرام جميل ، والتقاط أذن الحريص على التعلم لشوارد العلم من خلال الاقتراب من محيط دائرة التلمذة إن لم يحتل مكاناً في مركزها : شيء لا نزهد به ، ويتيح بعض التعويض ، وسيارة فقيه الدعوة اليوم أكثر إغراءً من حمار ابن عباس ، ويسعك أن تقف عندها ، فتسمع .

---

(٢١) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٥.

● والشعار : (الاصطياد مُشبع).

● **المعلم الثالث : إتقان اللغة العربية كلغة عالمية للدعوة الإسلامية ، مع إتقان كتلة المصطلحات الدعوية الخاصة ذات الدلالات العظيمة .**

فإن لغة القرآن والحديث والفقه والأصول وكل العلم الشرعي إنما هي العربية، ومن المستحيل أن تؤدي الترجمة نفس المفاد ، فوق ما في البلاغة العربية من نكهة خاصة ولذة بيانية شاعرية ، وإنما الترجمات للمستضعفين لا للمربين والقدوات ، وللعامة لا للدعاة ، ولكل أحد من غير العرب أن يُرضي أشواقه وعواطفه فيتحدث بلغته ، وينادي في قومه بلغتهم ، لكن مراحل التطوير وإتمام الصنعة القيادية ومهارات المهنة التنفيذية الدعوية لابد أن تمرّ بقناة لغة العرب ، ولن تكتمل شخصية الداعية إلاّ بها ، ومذهب ابن تيمية في ذلك واضح ، وقد أبداه في (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ، وبه أقول .

وفي اللغة لفٌ ونشر ، وإيجاز وإطناب ، وصاحب العقيدة والفكر يتوسل بهذه الوسائل اللغوية لتثبيت معانيه ، فيجمع المعاني الكثيرة في لفظ ، ويشرح اللفظ في كلمات مترادفة ، وتلك سُنّة لغوية إنسانية ، فيقول الأميركي Aganago وهو يعني I am going to go وكان العربي القديم يقول في مثل تركيب : (مكانك) أي قف مكانك ولا تتحرك (مكانكني) ، أي أمرني أن أقف مكاني ، فعامله معاملة من يُلحق النون بالفعل ويقول : أكرمني . وكذا في تركيب (كما أنت) يقول : (كما أنتني) أي طلب مني أن أثبت مكاني ولا أتحرك[٢٢] ، أي كما يستعمله ضابط الجيش اليوم حين يأمر الجنود .

فهذا من هذا في فقه اللغات العالمية . وقد استعمل العُرف الدعوي هذه الخصيصة اللغوية ، فأودع في لفظ بعد لفظ من صيحات الدعاة كبار المعاني ، وجمع فكراً كثير المفردات في كلمة واحدة يعرف الداعية شرحها فوراً إذا سمعها ، لكثافة ما أملي عليه من تأويلها ، وعمق المشاعر الوجدانية الروحية التي نجحت

---

(٢٢) الخصائص لابن جني ٣/ ٣٥ .

التربية في إعاشته في أجوائها وفي ظلال اللغات القلبية العامرة بالأحاسيس الإيمانية ، كقول الدعاة : "نحن على البيعة" ، فإن لفظ البيعة عندهم هو قاموس أخلاقي تنفيذي شامل ، و(الجهاد أسمى أمانينا) فإنه وصف كامل للعزة والاستعلاء وجملة أغنيات فردوسية .

وليس في كلام غير العربي بالعربية أي مقدار من سوء ، لأن الأمر لا توجبه نظرة قومية ، بل المصلحة والفوائد وتمام الفهم ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم تكلّم بألفاظ من لغات أخرى ، ولبس ملابس أمم أخرى ، ونأخذ الأمر قياساً على تكلمه صلى الله عليه وسلم بالحِمْيَرية ، فإن العلماء جعلوا ذلك تشريفاً لتلك اللغة .

قال ابن منظور في لسان العرب تعقيباً على قول النبي صلى الله عليه وسلم لرجلٍ دخل عليه وهو يملي رسالة : أنْطُ ، أي اسكت .

(قال ابن الأعرابي : لقد شرّف سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه اللغة ، وهي حميرية.) [٢٣] .

فكذلك في لبسه الجبة الكردية تشريف للأكراد .

ففي صحيح البخاري قول النبي صلى الله عليه وسلم :

(ائتوني بأنبجانيّة أبي جهم).

فأتوه بها ، ولبسها ، وهي جُبّة من صوف غليظ كانوا يستوردونها من ديار الأكراد من قرية انبجان [٢٤] .

وهذا شرف لكل كردي معاصر ، ولو درى ما في الإسلام من المساواة لرفض كل نزعة علمانية .

- والشعار (العربيةُ فهمٌ) أجود لدين الله .
- المعلم الرابع : تقليل وزن الجسم، والحرص على مقدار من النوم كافٍ،

---

(٢٣) لسان العرب ٣/ ٦٦٤ .

(٢٤) فتح الباي لابن حجر .

والطعام الصحي، والراحة النفسية ، وكل ذلك قول الأطباء وخبراء التغذية .

والداعية المسلم عنصر في الوجود ثمين ، ولذلك يليق أن تستفيد منه أمة الإسلام أوفى استفادة وأتمها ، وكل ثقل في حركته ، أو إبطاء ، لتعب أو قلة نوم أو طعام صعب الهضم مضر للقلب ، أو لقلق يعكر المزاج : فإنه يحرم العمل الدعوي من بعض طاقاته ، فضلاً عن تسبب ذلك في صعوبة أداء العبادات عليه ، وكثرة الوقت المهدَر ، وقلة المطالعة ، وتكرر الأمراض ، والقضية مشهورة الآن ، أذاع علومها الإعلام ، ولكن العزائم هي المتهمة .

ولست أقول بوجوب سعي المؤمن لنحافة بدنه ورشاقته ، وإنما أجعلُه شرط تفضيل ودلالة وعي ، اقتباساً من حال أبي بكر رضي الله عنه ، فإنّ ابنته عائشة رضي الله عنها وصفته فقالت : إنه كان (خشاشَ المرآة والمخبَر) (تريد أنه : لطيف الجسم والمعنى)[٢٥].

والخشاش : الرجل الخفيف .

فلم يكتف بلطفه الإيماني حتى أضاف له لطفاً في القامة ، وهذا يكفي الداعية ليختار مداراة حاله بالرياضة وقلة الأكل ولزوم أنظمة معالجة الوزن الزائد .

والأمر سهل : فإن المشي رياضة كاملة ، ويقلل الداعية من السكّر والخبز والدهون والنشويات ، ويكثر من الفاكهة والخضرة ، ويأكل المسلوق بدل المقلي.

وقد أكدت دراسة طبية حديثة أعدها المركز الصحي في التشيك أن قلّة النوم المتكررة تتسبب في اضطرابات خطيرة على الجسم وبشكل خاص على عمل الجهاز الهضمي والقلب وجهاز المناعة عند الإنسان . وأوضحت الدراسة أنه إذا قلّ عدد ساعات النوم عن خمس لفترات متكررة قد يؤدي إلى السكتة القلبية وآلام في الرأس تصل إلى ٢,٩ مرة على مدى الأسبوع ، وإلى ١,٩ مرة لاضطرابات في الجهاز الهضمي ، و١,٨ مرة لآلام في الرقبة والظهر وتعرض الجهاز المناعي للضعف ، الأمر الذي يعرض الإنسان إلى البقاء فترة طويلة في

---

(٢٥) لسان العرب ١/ ٨٣٤ .

الفراش بعد كل عدوى مرضية . ولفتت إلى أن إشكالات النوم زيادة أو نقصاً هي من أمراض العصر الحديث . وأن الجسم السليم يحتاج إلى ٦-٨ ساعات من النوم يومياً حتى يتجنب معظم الأمراض.)[٢٦] .

والجزَر غني بالبوتاسيوم ، والتمر والموز بدرجة ثانية ، وهو عنصر من شأنه إنماء المشاعر الإيجابية كلها ، من الثقة بالنفس ، والشجاعة ، والمودة والحُب ، والتفاؤل ، والطموح ، ويقلل الحزن والقلق والخوف وكل السلبيات .

وفي الراحة والنزهة تجديد للهمم ، وفيهما مجانبة للحركة ، لكن فيهما مجال تفكّر ، وذلك إيجاب ، وفيهما استعداد لاستئناف وبذل مزيد وإن تعرضت بسببهما لظنون البطالة ، وقد عَرَفَ الشاعر ذلك فقال :

★لعَمرُك ما كلُّ التعطّل ضائرٌ★

والحكيم يوازن ، ويتعب ثم يطلب راحة ، ويحمل عياله على غلق التلفاز قبل سبع ساعات من أذان الفجر ، والمشي بعد الصلاة ، أو أداء ألعاب سويدية و(ايروبك) ، فتقل حاجته وحاجة عائلته للأطباء والدواء .

والحبة السوداء ، مع بعض الثوم أحياناً ، إذا ناولهما لعياله باعتدال : فهما خير وقاية من الأمراض ، ويتوفر له وقت يصرفه للعلم وفي الدعوة بدل صرفه في الركض إلى العيادات .

□ وذلك جماع القول في الصحة ، والأخلاق ، والمعروف ، وتحريك الحياة بالحسنى ، والرفق ، وأحاسيس الجمال ..!

فإن هذه الحيثيات والملاحظات ، والأسانيد والعلل : هي التي جعلت محمد احمد الراشد يقول : أنه جمع الحكمة من أفواه المجربين ، وأطال النظر في أحوال الدعاة ، وأنصت لمواعظ فقهاء الدين ، فوجدها تتركز في بضع وعشرين من شعارات الحقائق والإشارات .

---

(٢٦) جريدة البعث السورية ٢٠٠٧/٣/١٤ .

فهو الإيمانَ رسوخٌ .	والإصلاح رِفعة .	والتألّه منطلق ...
والحوارُ كشفٌ .	والحلمُ ارتقاء .	والعفوية نِعمة ...
والتقلّل إسراع .	والفطرة رحمة .	والمعايشة ترشيد ...
والريادة دَلالة .	والحركة بَرَكة .	والإبداع مفتاح ...
والزكاءُ أصلٌ .	والاستقامة قرينة .	والأقدارُ تصفية ...
والتوثيق أمانة .	والاحترامُ جمالٌ .	والإحسانُ إلزام ...
والإسرارة شرارة .	والعلم حارس .	والاصطباد مُشبِع...
ثم العربيةُ فهمٌ ...	والصحةُ تمكين ...!	

وكل ذلك من أريج عبير الوعي ... وقد تمّت .. وبالخير عمّت ..

والحمد لله العلي الأجَلّ ...□□

٦ قُدُماً.. نحو السياسة

□□ تخضع المشاركة الدعوية في الحياة السياسية لموازين كثيرة، بعضها شرعي ويكون الفيصل فيه قول الفقهاء وثوابت العقيدة، وبعضها واقعي تتحكم فيه الظروف ومعادلات القوة، وبعضها تخطيطي محض، تدفع إليه نظرات التدرج والتكامل وعلاقة الخطوات المرحلية بالأبعاد الاستراتيجية.

● بيد أن الملاحظات الميدانية في بلاد شتى ترينا أن أوسع الجدل والنظر الخلافي إنما يدور بين الدعاة منذ سنوات تمليه قضية (مدى تأثر التربية الإيمانية الأخلاقية) بالممارسة السياسية، فقد رصد الراصدون من الدعاة أنواعاً من الضعف في هذه التربية في كل بلد دخلت فيه الدعوة عالم الانتخابات البرلمانية، واستلمت بعض المناصب الوزارية، وما يتبع ذلك من حيثيات وتفاصيل إعلامية واحتفالية وسياسية، وبسبب ذلك تحدث (صدمة) وحالة سلبية تهز الدعاة التربويين، وتجعلهم يتخوفون من عواقب الصخب السياسي، وأهمها: ظهور ضمور في العبادة والحياة الدعوية المسجدية، وبروز فرص للضعفاء فكرياً ودينياً أن يتسلقوا ويحوزوا مناصب ووجاهة، إذ التربوي يختفي في الصفوف الخلفية، ثم تظهر حالات من الإرهاق البدني للدعاة تؤدي إلى هبوط في المستوى التعبدي، وفي مدى الانتباه لتربية زوجاتهم وأولادهم، فيحل جفافٌ بعد النداوة القلبية، ولربما تختلط النوايا بعد دهر من التجرد والصفاء، وبضغط من هذه الظواهر السلبية التي يتعكر الواقع الدعوي بها وما هي بخيال: تبدأ مقولة (هجر السياسة) تسري بين صفوف التربويين، فيقابلها إصرار من الدعاة الذين دخلوا العالم السياسي على المضي قُدُماً وعدم التراجع، فتنشأ من ذلك حالة خلاف وتباين في الرأي والفقه التخطيطي قد تؤدي إلى نتائج غير محمودة، وإلى حالة من القلق، ولذلك يجدر بفقه الدعوة أن يجعل نفسه حكَماً في هذه القضية المتكررة في أكثر البلاد، وأن يقول قوله بصراحة وحياد، ويضع النقاط على الحروف، لئلا تستبد

التأويلات المتعاكسة وتجعل خلاف الرأي يتحول إلى انقسام الدعاة إلى جمهرتين تحمل كل واحدة قناعة بخطأ الأخرى، فيكون الفصام وتبادل الاتهام، وتضيع حقوق الدعوة في مثل هذه الحالة من الازدحام.

□ إطار رباعي يستوعب منظر المشكلة

□ وأول الحكم الحيادي في هذه القضية: الاعتراف بالحقائق المتولدة من خطة المشاركة السياسية، والتذكير بها، لئلا يظهر شطط في التقدير تمليه فورة الحماسة عند كل جمهرة لترويج قناعاتها:

● الحقيقة الأولى: أن عمليات المشاركة قد حققت أنواعاً من الفوائد والمصالح الإسلامية لا يمكن نكرانها، مثل الحماية للدعوة وكبت التصرفات الأمنية الحكومية أو تقليصها، ومثل ترويج اسم الدعوة وفكرها وإظهار مواقفها والتعريف برجالها وقادتها، واحتلال مواقع رسمية تزيد النفوذ الدعوي وتسهّل ترويج العلوم الشرعية والكلام الإعلامي الإسلامي، مع سعة في العلاقات، وجمع خبرة إدارية وتعاملية ترتقي بالمستوى العام للدعاة والأداء الدعوي، فكل ذلك حق، وقد حصل بدرجات تختلف من قطر إلى قطر، والأمر مهما اختلف تقدير نسبة النجاح معدود في المكاسب والإيجابيات، ونكران ذلك مغالطة عمدية وعدول عن العدل.

● والحقيقة الثانية: أن الضعف والهبوط التربوي قد حصل بالمقابل، وقست قلوب البعض، واختلطت عند آخرين مصالحهم الشخصية الذاتية بالمصالح الإسلامية العامة، وانفتح أمام أصحاب اللسان وحُب الظهور مجال التسلل واحتلال مواقع لا يستحقونها، وظهر من مؤيدين للدعوة اضطررنا لتقديمهم نوع تزلف للحكومة وموقف فيه لين جلب الحزن لقلوب الثقات والمربين، فكل ذلك سوء عالق في ثنايا الإنجازات الجيدة، ولا يمكن نكران حصول هذه الفلتات، ولكن يمكن القول أن درجات حصولها شتى، فبَلَدٌ أقرب إلى العافية منها، وبلد قد حصل فيه إسراف، وجفلة المربين حق، والمكابرة تديم الجدل.

● والحقيقة الثالثة: أن الضعف المرصود إنما هو بالنسبة إلى المثاليات الدعوية، وإلى حالة التحليق السامي الذي وصلت إليه الدعوة من خلال التربية العالية المستوى التي ساعد عليها العمل المغلق المبتعد عن السياسة، وأما بالنسبة إلى المستوى الشرعي العام فنحن جميعاً بخير والحمد لله، ومن صلّى الفروض الخمس وهجر الكبائر فقد جاز القنطرة وساغ أن يوصف بالثقة، والخلاف من الناحية الشرعية إنما هو محصور فيما هو (أفضل) للدعاة و(أليق) بهم، ولا زلنا أفضل ممن لا يصلي، وأعلم من مُصلٍ مبتدع أو جاهل، وأنزه من كل الساسة العلمانيين.

● والحقيقة الرابعة: أن حصول الضعف لا مفر منه، وهو ضريبة لازمة مفروضة على كل من يمارس السياسة، لأن الطاقات محدودة، والأوقات المتاحة محصورة، فكلما كانت قسمتها على جوانب أكثر: كانت الحصة الجزئية أقل مقداراً، وإنما تكون التربية وافرة عندما نبتعد عن السياسة لأن كل الطاقة تُصرف لها، وكذا الأوقات، فإذا شاركتها السياسة: يكون توظيف شطر الطاقة للتربية فقط، وشطرها الآخر للسياسة، فالضعف على ذلك إنما هو نتيجة طبيعية، لكن يمكن أن يقال: إن المؤمن في حالات التحدي والاستفزاز يستطيع أن يضاعف توظيف طاقاته ويبلغ بها الحد الأقصى الممكن، وهذه حالة لا تدوم، لأنها استثنائية، وهي تحقق بعض العلاج الموقت لا الدائم.

□ منطق قبول الضعف ترجيحاً للمكاسب التي توفرها السياسة

□ إن استحضار مفاد هذه الحقائق الأربع يمكنه أن يؤسس منطقاً تجريبياً يجيز لقادة لدعوة ورجال التخطيط الدعوي أن يقرروا مواصلة الممارسة السياسية بالرغم من وجود المنغصات وسلبيات ضعف التربية، وقبول ذلك كحالة ضرورة، مع أنهم يلمسون اختلاط النوايا وهزال الأرواح، وهي جرأة غير تعسفية، ولم تسوغها شهوة، وإنما أدت إليها الموازنة بين المصالح وقراءة الساحة

واستشراف المستقبل بنظر عقلاني يميل إلى الفهم الواقعي ويستند إلى مثل المنطق المتكامل الآتي:

- (١) معنى المستوى الروحي والأخلاقي والتعبدي، الذي هو مغزى التربية التي هي مدار الخلاف، فإن من له خبرة بنصوص الشرع وتفسيرها وفق قواعد الأصول يستطيع أن يجزم بأن هذا المستوى هو أمر أبعد من مجرد تعديد ركعات يصليها المسلم وختمات يتلوها، وأن العبرة بالنوع لا بالكم والعدد، ورُبَّ من يصلي الفرائض فقط بخشوع وفقه وتدبّر، فيكون أفضل ممن يضيف النوافل وهو في صلاته شارد الذهن، ولا يهتم بأمر المسلمين، وعلى ذلك فإن المستوى الروحي هو حالة عاطفية عامة تستبد بالمؤمن وتجعله ينحاز للإسلام ولقضايا الأمة بوعيٍ وحُرقةٍ قلبية وتشغيلٍ عقلي دائب، ومن هنا تدخل الموازين النسبية في وصف الثقة والضعيف، وما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه حافظاً لكل القرآن، ولا اشتهر بكثرة النوافل، إنما كان كثير التفكير في خطط الحرب والجهاد، وخدم الإسلام بهذا الفكر الجهادي، فكان سيد الثقات، ولذلك يكون من الظلم لوزير داعية أو نائب برلماني داعية أن نصمه بهبوط المستوى التربوي إذا أقام الفرائض وكان جيد الدفاع عن حقوق الأمة والمستضعفين، وتنموياً وإنتاجياً في أدائه الوزاري، والمئات من الدعاة الذين يعاونونه في هذا الأداء وتقل أعداد ركعاتهم يسري عليهم نفس الميزان، حتى الذي يلصق الدعاية الانتخابية على الجدران.
- (٢) أن كلام الفقهاء والأدباء والوعاظ في رسم صورة المؤمن الأمثل لا تعني ازدراء المؤمن الأقل عن درجة المثالية، ممن يحوز الثلث والنصف، فالصورة الكاملة إنما تنصب كهدف، وفي كل سائر ومحاول للوصول بركة، ونحن على الجملة (أخيار، ولا فخر)، وهذه العبارة هي عنوان الفصل الأخير من كتاب (العوائق)، وإنما سيقت هذا المساق، ولا يسوغ شتم أنفسنا والمبالغة في إدعاء الضعف، بل نحن ما زلنا في الدرجة التي تلي درجة الملائكة، مهما رصدنا من

أسباب الصلابة في القلوب، وفي كل ركن من أركان السياسة دخانٌ وكيرٌ وسخام، فإذا تلوثت أرديتنا فليس ذلك يعني تلوّث الأفئدة، ويجدر بمن أقام المناحة في دارنا يندب التربية أن يرجع إلى هذا الفصل الأخير من كتاب العوائق، بل يجب، لتزول وسوسته.

● (٣) موازنة الناتج في الحالتين تبدي رجحان حالة الممارسة، فلو أحصينا كمية الفوائد والمصالح المتحققة في حالة الانغماس في الحياة السياسية لوجدناها كثيرة ومتعددة الأنواع، منها: إصلاح الحياة الاجتماعية بعض الشيء، وبمقدار يتناسب مع حجم وجودنا السياسي، وكشف الفساد الإداري وتقليصه، وتوفير بعض الخدمات للناس، مما يجعلهم يميزون صدقنا، وانظر في ذلك مثلاً: القضاء على التضخم المالي في تركيا حين حكم الإسلاميون، وخدمات البلدية، وفتح الجامعات والمدارس. ومنها: توفير البيئة المساعدة لعمل الدعاة، وبعض الحرية النسبية، والعمل الإعلامي المصاحب لتحالفنا مع الطرف السياسي الآخر، وفتح المؤسسات الدعوية وإجازتها، في أشكال كثيرة من التطور في نوعية العمل، بينما البقاء في حالة الانغلاق التربوي تجعل معادن الدعاة أجود، لكنها تحرمنا من كثير من هذه التطويرات والعلاقات، فبميزان الربح والخسارة ندرك أن مجموع ما نحصل عليه من نتائج الممارسة السياسية هو أكبر في القيمة مما نخسره في صورة ضعف تربوي، وليس ذلك هو التهوين من شأن الضعف، بل هو نذير خطر ويحمل في ثناياه احتمال الانحراف، ولكن علاجه لا يكون بهجر السياسة، وإنما باستدراكات تربوية واحتياطات وفنون تخطيطية نحاولها كلها إذ نحن في أقصى الانغماس في الحياة السياسية، ومن الله الإعانة إذا علم صدق النوايا، والعالم اليوم مثل قرية واحدة، ووصلت المدنية والحياة العلمية إلى درجة من التقدم ما كان أحد يتصورها، ويحكمنا الكومبيوتر والموبايل والأدوات الرقمية والفضائيات، والعزلة الدعوية بحجة بقاء النقاء ستكون قراراً انتحارياً يُجلينا من الساحة والميدان ويحصرنا في المساجد، بل قد تمنعنا الحكومات حتى من المساجد

كما حدث في تونس، ولابد من قرار شجاع بالمنافسة السياسية، ولكن مع علاج الخدوش التي ستكون، أو الجروح، أو الكسور، والدعاة إذا امتلكوا الحكمة: عرفوا التصرف الوسطي الموزون، ونبقى نشير إلى خطأ التهور، ونسيان التربية، وإنما يعصمنا من السوء والضعف موقفٌ متعادل بين الإفراط والتفريط. ومعنى ذلك خطأ الدعاة الذين يتولعون بالسياسة حين يروا نتائجها الحسنة فينسَوا فضل ربهم وفضل المنهج التربوي وتبدأ عندهم نغمة عدم لزوم التربية، وأن يوميات السياسة هي التي تربي، وهذا صواب مختلط بوهم كبير، فإن السياسة تربي الدعاة على النباهة واللباقة وفهم المحيط واكتشاف الأصدقاء والحلفاء، وتمنح خبرة إدارية وفصاحة في القول ربما، وهذه هي بعض احتياجات الدعاة، وأما بعضها الآخر فإنما تمنحه كثرة النوافل والحياة المسجدية وتلاوة القرآن والأخلاق وأعراف احترام الشيوخ والكبار ورحمة الناس والصغار، وهيهات أن تهبنا السياسة مثقالاً واحداً من ذلك، إلا أن يكون من باب رعاية المصالح والمظاهر، فيكون أقرب إلى التدليس والتصنع وبعيداً عن العفوية والاسترسال الإيماني الذي يحمل في ثناياه البركة، وقد رأيت في بعض البلاد شباباً من الدعاة ساءت أخلاقهم التعاملية حين اعتقدوا عدم وجوب التربية الإيمانية وفق المنهج المعروف، ولمست منهم تكبّراً وغروراً، والعياذ بالله، وما ذاك إلاّ من خطأ أحادية النظر والغرام بالسياسة إلى أكثر من الحد اللائق، أو الاكتفاء بعلوم الإدارة وطرائق الإبداع على منهجية الغربيين دون الاستمرار مع الحياة المسجدية البسيطة وتزكية القلوب بكثرة النوافل والتلاوة ومطالعة كتب التفسير والحديث والفقه والسيرة، ونقطة البداية في الاستدراك تكون في استيعاب معنى (شمول الدعوة) وتنوّع مواردها، وأننا من جانب المحراب يبدأ سيرنا السياسي أيضاً لا سيرنا العلمي والتربوي فقط، وأن الخطة التربوية إنما هي عمل دائم مستمر استراتيجي المدى، وما هي بعمل مرحلي له أمد محدود وتنهيه السياسة، وكل متنطع يلوك لسانه حديث المرحلية التربوية له حق علينا أن نوضح له وجه وهمه

ثلاث مرات بالحسنى وبالرفق، ونفترض أنه مجتهد خطفه الخطأ ولم يوفّق، أما إذا أصر وجادل بالباطل بعد ذلك فعلينا إغلاظ القول له، فلربما يوهم آخرين ببدعته هذه، ولا نخرجه من الإسلام، ولكنه على غير طريقة الدعوة وأعرافها الموروثة التي هي خلاصة التجربة لعدة أجيال دعوية، بينما فهمه النشاز ليس غير وليد تأمل فردي، وقد يكون الإغواء الشيطاني خلفه، لصعوبة التزامات المنهجية التربوية وسهولة الأداء السياسي المجرد.

- (٤) إن نظرية تحصيل الدعوة والدعاة لولاء عريض واسع المدى بعد النجاح في تكوين الرهط المركزي التنظيمي الذي يقر بالطاعة: تستدعي نزول الدعوة إلى المحيط السياسي، كي يُتاح تحصيل هذا الولاء عن طريق إبراز القيادات الدعوية وإشهارها، والانتقال إلى الخطاب الإعلامي العام لا التلقين التدريسي فقط. وهذه قضية في التخطيط والأداء المتطور ورد شرحها في كتاب (صناعة الحياة)، فمن آمن بصناعة الحياة: يؤذن له أن يفهم معنى تطوير العمل الدعوي بتحصيل الولاء وتجاوز مبدأ (الطاعة) الذي هو لازم لتكوين الثلة المنتظمة فقط، وأما الجمهور العريض وسواد الناس الأعظم فمن الصعب أن نطلب منهم الطاعة، وليست نفوسهم مؤهلة لذلك، بل لا حاجة لنا بطاعتهم، وإنما نطلب منهم الولاء فقط، والانحياز لنا، والتصويت لنا، والثقة بنا، وهذا يكفي لترجيحنا سياسياً، ومن موطن السلطة تتم الإصلاح والتغيير، وإذا كان الأمر كذلك فإن الممارسة السياسية المفتوحة المتضمنة للخطاب الإعلامي ووسائل الاستقطاب الجماهيري تصبح ضرورة لازمة لاستمرار العمل الدعوي وعدم الترهل، وحصول الولاء الواسع المدى في هذه الحالة سيكون مكسباً دعوياً يليق أن ندفع له بعض الثمن في صورة ضعف تربوي، ومرة أخرى نقول: إننا لا نتقصد ذلك حتى يغضب علينا أهل التربية، إنما هذه نتيجة عرضية لتخطيط صائب، فنعالجها بما يليق، وليس علاجها بهجر السياسة، مع أن حالة الانتعاش النفسي التي ستستقر في قلوب جميع الدعاة قادة ومقودين نتيجة التفاف الناس حولهم ستكون

هي البديل المكافئ لحالة الانتعاش الروحي الذي تجلبه التربية والحياة المسجدية، ورجال التخطيط الدعوي يدركون اليوم أن نظرية العمل الفردي ما عادت تكفي، مهما كانت صحيحة، وأن الاتصال الثنائي أصل، ولكن نتائجه محدودة ضيقة، وقد تمّ استعماله لتكوين النواة الدعوية في كل قطر، أو في توريث التجربة الدعوية لعناصر يراد لها أن تكون قيادية، وأما المنافسة السياسية في مراحل الدعوة المتقدمة فتحتاج ظهور القيادات، وعلانية العمل، وتكوين مؤسسات، وصوتاً إعلامياً صريحاً، من أجل تحصيل الولاء العريض.

● (٥) إن أكثر الأقطار حصلت لديها قناعة بوجوب تطوير العمل الدعوي وفق مذاهب التخطيط المعاصرة، ونشأ من ذلك وجود مؤسسات دعوية كثيرة، وجمعيات، واستثمارات مالية، وصناعات ربما، وكل ذلك يحتاج إلى (حماية سياسية) في مجتمع لا يرحم وصراع دولي تقوم علاقاته على قواعد البطش وتهمة الإرهاب وتفويض المخابرات أوسع الصلاحيات في التضييق على العمل الإسلامي، وهذه أحوال تستدعي أن يكون للدعوة شطر سياسي يمنحها هذا الغطاء ويحامي عنها ويدافع عن مؤسساتها، وكل شيء بثمن، فإذا كان الضعف التربوي هو بعض هذا الثمن: قبلناه على مضض وبنيّة علاجه، والغُنم بالغرم، ولن تجد عملاً صافياً زلالاً لا شوائب فيه، وبعض الشر لابد منه، وعندئذ نقوم بتنزيل السياسي المسلم الذي يُصاب بالضعف منزلة المؤيد والنصير الذي يكون ضعفه عليه ودفاعه عن مصالحنا لنا، مع أن الشرع والعقل يجيزان لنا وعظه وتذكيره بأيامه السالفة، إلاّ أن يكون ضعفه بإسراف، وأنه يلوث سمعة الدعوة، فعندئذ يكون لكل حادث حديث، والحزم في تلك الحالة أليق، ولكن هذا نادر الحدوث، ولا تزال الممارسات الدعوية السياسية بخير والحمد لله.

(٦) ينبغي تدقيق معنى التربية الدعوية، فإن بعض الدعاة يحمل مفهوماً رجعياً بالذاً يتصور معه أن صورة التلقين وجلوس التلميذ بين يدي المربي هي الشكل الوحيد المقبول للتربية، وهذا فهم عتيق تجاوزته الأيام والتطورات المدنية والحطية، إذ التربية أوسع جداً من ذلك، فنشر الكتب له مردود تربوي واضح على من يطالعها ولو لم يشرحها له أستاذ، والجرائد والمجلات الإسلامية تغرس من المفاهيم والقناعات في نفوس القراء ما لا يستطيعه المربي، بل وتتلاعب بالعواطف وتصعد بها وتنزل، والأشرطة المسموعة والمرئية هي جزماً وكيلة عن المربين تدخل كل بيت ويستثمر الداعية الأوقات الضائعة لسماعها ورؤيتها، ومواقع الإنترنيت عميقة التأثير، والجيد منها يُعدّ بالمئات الآن، ويكمل بعضها بعضاً، والقنوات الفضائية تنفض المشاهد نفضاً وتهزه هزاً، وأخبار الدعوة العالمية أصبحت أعمق المؤثرات، ففي كل يوم حزمة أحداث تسري عدواها الخيرية عبر البحار والقارات، بل تاريخ الدعوة أصبح بحد ذاته عاملاً تربوياً يهب الدعاة أبلغ المواعظ والتشجيع، بل قادة الدعوة ورجال الفقه والفكر فيها اكتسبوا مكانة عالمية وما عاد تأثيرهم محلياً، أفبعدَ كل هذا نزعم أن فلاناً السياسي المسلم ضعف لأنه يغيب عن جلسات التلقين التي خضع لها مدة طويلة؟ هذا بهتان عظيم، فهذا الغائب لا يستطيع الاختباء من تأثيرات الكتب والصحف والمواقع والفضائيات عليه مهما حاول، وهو الأسير لها، ولكنه يبقى بشراً تجوز عليه الغفلة أحياناً، ويصرعه الشيطان، ويهوى الدنيا والمنصب، وينصت لزوجة تريد من منصبه نصيباً، فتكون منه الزلّة، وينسى الشكر ثلاثة أيام، ثم يعود إلى أصالته ولجابته، ويؤثر فيه حليب الدعوة الذي تغذى عليه، فيتوب ويرجع إلى معدنه الصافي وإلى رهطه وسِربه، فأيّ غرابة في ذلك حتى نقيم الدنيا ولا نقعدها؟.

● (٧) إن التطور العالمي العام انعكس على الدعوة أيضاً في صورة تطور في شكل العمل الدعوي ومفهومه وآفاقه ووسائله، وأصبحت خطط الدعوة استراتيجية المدى من جانب، ومهتمة بتمتين العلاقة مع الناس عبر مجموعة خطط طموحة تعتني بالخدمات العامة والحقوق السياسية والمدنية، ولم تعد مجرد مواعظ مسجدية وآفاقاً أخلاقية فقط، وإنما هي جملة قضايا عامة صارت محور العمل والمواقف، وأصبحت مذهباً في تحريك الحياة نحو الوجهة الإسلامية، فيها ما هو سياسي وما هو اقتصادي وما هو اجتماعي وما هو جهادي تحرري، وآفاق كبيرة كهذه يكون من شأنها بعث روح التحدي في كل فرد من الدعاة، والتحدي يربي ويُنضج صاحبه ويجعله إيجابياً إنتاجي النمط والطبيعة، وحتى الداعية الجديد - فضلاً عن المخضرم والقديم - يجد نفسه أنه مؤتمن على ثغرة تخطيطية ويشعر بمسؤولية الأداء والاتقان لها، وهذا وصول إلى أقصى درجات التربية، وهذا هو معناها الحقيقي المتطور الذي يتفوق على معناها التقليدي الجامد القديم الذي يعتني بالشكليات والهامشيات أكثر مما يعتني بجوهر التربية، فللدعوة اليوم مثلاً: مساهمات واهتمامات تنموية تجعل جمهرة من الدعاة مهتمة بالتقدم العلمي والاكتفاء الصناعي الذاتي، وتوفير فرص العمل، وتطوير الزراعة، والتدريب، والارتقاء بالصحة والتعليم، في قضايا أخرى مقابلة تنقل الداعية من التسيب إلى الارتباط الهادف بقضايا المجتمع والدولة ثم الأمة، وفي ثنايا ذلك يتبنى الدعاة محاربة الفساد الإداري، وتوجيه الشباب نحو الإنتاج والتزام الأخلاق والعفاف، وقيادة الناس عبر جمعيات المجتمع المدني والنقابات نحو كسب حقوقهم وزيادة دخلهم، وكل ذلك شغل خيري يرتفع بمستوى اهتمام الدعاة، ولن نأمل من التربية أكثر من هذا، ومعنى ذلك أننا جعلنا الآفاق التخطيطية والتنموية مورداً تربوياً دعوياً ولم نحصر الأمر في التربية التلقينية، وهذا الانفتاح يستدعي مشاركة سياسية واسعة، والتنمية وقيادة الناس هما جوهر السياسة في الحقيقة، ولذلك يجب الصبر على معالجة ظاهرة الضعف الروحي المصاحب للأداء السياسي.

● (٨) ومن موجبات المشاركة السياسية: أنها صارت قراراً عالمياً يعمّ أكثر الأقطار، وما عاد بإمكان قطر أن يستثني نفسَه ويبقى في العزلة، بل يجب عليه الانسجام مع القناعة الدعوية العالمية، والتنسيق مع الممارسة السياسية الدعوية الإقليمية التي من حوله، فإنه جزء من كل، وهي تؤثر فيه، ثم هو يؤثر فيها، وقوة الدعوة في كل قطر هي قوة للدعوة في البلاد التي تجاوره، وذلك يجعلنا نجزم بقرار الانغماس في الحياة السياسية، مع الاستعداد لعلاج السلبيات المصاحبة، وخرجت القضية عن حدود الاجتهاد والخيار وصارت حتماً مقضياً، والبطل هو من يتقن العلاج وليس هو من يعاند التوجه العالمي الذي صار واقعاً وحقيقة شاخصة، بل أن مجاراة التربوي لهذا الأداء السياسي يمنحه حقاً في النقد والتصويب والرقابة والترشيد، في بلده أو في البلاد الأخرى، بينما العزلة والنقد من خارج المسيرة يحرمانه من الحق العُرفي في إبداء الرأي الصريح.

● (٩) أن بعض الأقطار التي جثم عليها الاستعمار، مثل فلسطين والعراق: تجاوز الأمر فيها حدود السياسة إلى أداء جهادي، وهو امر أعمق وأوسع مدلولاً وأكثر خطورة، ومن لوازمه السياسة، من أجل المفاوضة وتحصيل الحقوق وبناء الدولة بعد نيل الحرية، والتعامل مع الدول الأخرى، في قضايا أخرى لا يستطيعها المقاتل الميداني، كالتموين والتمويل والإعلام، والدعوة في البلاد المتحررة عليها واجب الإسناد، وهذه علاقة لا تتم إلاّ من خلال سلوك سياسي وعلاقات على أعلى المستويات. ثم العولمة اليوم تغزو الأمة الإسلامية بوسائل جديدة تعتمد التقنيات المتطورة، وما عاد التخفي ينفع، والدعاة هم قادة المجتمعات، وإذا لم يظهروا وتتحول جهودهم التربوية إلى شكل عملي ينطوي على قيادة الناس في يوميات حياتهم فإن الجمهور الإسلامي سيحار وتحصل وسوسة تنتهي بالاستسلام لمزاعم العولمة، فظهور الدعاة كقدوات في الساحة وزعامات سياسية هو باب تثبيت الناس وعدم انهيارهم، وبذلك تكون الممارسة السياسية هي واجب المرحلة مثلما هي بُعدٌ استراتيجي، وهذا أوانها، لأن العولمة

ما زالت لم تستقر، وتقف على أرض هشة، وأمامها مصاعب، بل هي تترنح وقد تراجع، والمشاركة السياسية العالمية تجعل طريق العولمة أصعب، والدعاة يجيدون عنادها وتقريعها وتوعية الناس بأخطارها، ولا يجوز تأخير هذا الواجب لذي يتقنه الدعاة جداً، وانكشاف خاصرة العولمة حاصل، والنزول السياسي الإسلامي هو الكفيل بأن تنسحب ويحصل لها الانكفاء، وكما ساغ في فقه الشريعة والفتوح أن يضم جيش المسلمين أصحاب المعاصي والخمور: فإنه يسوغ اليوم أن ننزل إلى الميدان السياسي رغم رجحان احتمال ضعف بعض الدعاة وانصراف نوايا البعض إلى اهتمامات دنيوية ومكاسب شخصية، لأن السواد الأعظم من الدعاة ما يزال عند حسن ظن المسلمين وعلى نية صادقة، ويمكن تخريج القضية كلها على قاعدة احتمال أخف الضررين لدرء أعظمهما.

● (١٠) **ونقول في كل ذلك: أنه النزول السياسي الجريء بالاسم الصريح للدعوة، وليس التستر بالواجهات والأسماء الأخرى، وذلك أمر تقتضيه شمولية الدعوة، وهو من المواطن الدقيقة في فقه الدعوة**، ويصعب استيعابه على من لم يتعمق، ولكن أصحاب التجربة الطويلة يفهمونه، وفصل (معاً نعاني) في كتاب (منهجية التربية الدعوية) معقود لبيانه، ولن يتم وعي الداعية ما لم يعكف على فهمه وفحص معانيه ثلاث مرات متواليات.

● فبهذا المنطق العَشري يكون تأسيس القناعة بلزوم الممارسة الدعوية السياسية في جميع أرجاء العالم، تماشياً مع التطور وحقائق الواقع.

□ ثقة وتفويض.. لكن نحتاط لهما بالرقابة

□ ولكن هذه الحماسة التي حدت بنا إلى إقرار وترجيح العمل السياسي لا تعني أبداً تناسي الاعتراضات الصائبة التي يبديها رجال التربية، فإنهم قد أصابوا في رصدهم لحدوث أنواع الضعف التربوي والاختلاطات القلبية، ونحن لا نخالفهم في طروء وحصول السلبيات، وإنما نخالفهم في زهدهم بالسياسة فقط، وعلى الخطة الدعوية أن تستمر في معالجة أسباب الخلل و مظاهره، وأن تفرض رقابة صارمة على الأداء الدعوي السياسي، وأن تجهر بالنصح العام، وتسارر بالنصح الخاص، حتى تستقيم أمور الدعوة، وما هي ببالغة حدود العصمة مهما كان الحرص.

□ ونقترح لترشيد الممارسة السياسية جملة احتياطات، كلها من الحق الذي لا مراء فيه وما هو بتكلّف، ومن ذلك:

- (١) منح رجال التربية في الدعوة حق التحذير والإنذار والتخويف من ظهور سلبيات أخلاقية وسلوكية مصاحبة للأداء السياسي، وأن نستقبل ذلك بصدور واسعة، إنفاذاً لحديث (دعوه فإن لصاحب الحق مقالا)، فهم أصحاب حقٍ حقاً، وقد جربتهم الدعوة فكانوا الأمناء الثقات، وعلى السياسي أن يقر برقابتهم عليه بالحسنى والمعروف ومن غير تعسير، بل بحدود ما ورد في منطقنا في هذه الصفحات، والشاب بخاصة مطالب باحترامهم كل الاحترام، والإنصات للاحظاتهم، ومثله الجديد في الانتساب، والخطأ وارد عليهم، ولكن معظم أحكامهم صحيحة، وكل تحرير للثلة السياسية من هذه الرقابة التي يفرضها رجال التربية فإنما هي إغراء بارتكاب اللين.
- (٢) استمرار انتساب السياسي للمحضن التربوي ما أمكن، من دون مبالغة وإرهاق، ولكن يحسن أن يُخصص في كل شهر أحد الأيام للاعتكاف في المسجد، والتلاوة، والتنفل، والتهجّد، مع الانقطاع عن الهواتف والملهيات، لعلّ بعض

التعويض يحصل، ونحن نعلم أن عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، ولكن هذا لا يعني الاسترسال في هجر النوافل.

● (٣) **تكثيف نشر الفكر والعلوم الشرعية في الخطة الدعوية، وتكميل ذلك بترويج الأدب الإيماني**، والفن الجمالي الإيماني، لكي تتعدد أسباب التذكير والاتعاظ ولا يقطع الغفلات غير مثل هذه النصائح والتحذيرات الواردة في ثنايا كلام الفقهاء وأدب المؤمنين وأشعارهم وفنونهم، وتكثيف الكلام السياسي خطأ، بل سياستنا الفكرية متعادلة، والتربويات لها موجب قوي، والمواعظ تفتح أقفال القلوب ربما.

● (٤) **إبراز قدوات تربوية ونزولها إلى الميدان، وتطوافها في أنحاء العاصمة** حيث تتركز أعمال السياسة، وفي المحافظات والولايات، وزيارة المغتربين من الدعاة في دور هجرتهم. وهؤلاء القدوات هم دعاة ممن اتقنوا التربية وعهدنا عندهم حسن التصرف وجمال القول والنصح، وهدوء الطريقة، ووفور العاطفة، وعمق معنى التآخي، مع العقيدة الصحيحة وبعض العلم الشرعي والثقافة والمعارف، ويكون **واجبهم ترطيب أجواء التجمعات الدعوية بالكلام الإيماني، لتحصل معادلة مع كثرة التداول السياسي، وأصل نصيحتهم عامة، لكنها قد تكون خاصة مع ذي هفوة وتساهل وتفريط**، ولربما يكون من واجبهم كتابة مقالات مشحونة بالمعنى التربوي النقدي الذي يستشهد بالواقع الجاري، والظهور في وسائل الإعلام الدعوية بكلام مثيل، وليس من شرطهم أن يكونوا من علماء الشريعة، بل كل داعية قديم له سمت وهَدْي طيب يصلح أن يبرز في جملة هؤلاء القدوات.

● (٥) **استعارة أسلوب جماعة التبليغ البسيط في الخروج أربعة أيام في كل موسم في جولة تعبدية يبيتون أثناءها في المساجد ويعظون الناس، فالداعية الذي تلهيه** السياسة سيعود إلى التواضع بمثل هذا العيش الزهدي، وقد يخف عنده شعور الغرور، ويكون أبعد عن الكبرياء، وهذه هي الأدواء والعلل التي تذهب ببركة النشاط والعمل.

● (٦) تشديد القيادة الدعوية على نفسها في ترشيح الدعاة وأنصار الدعوة لمناصب السياسة والوزارة والبرلمان، بأن تلتزم شروط التوثيق، وأن تترك المكان فارغاً أفضل من ترشيح ضعيف لاحتلاله، ففي الترشيحات التي ظهرت في مختلف البلاد رأينا المتسلق، والنفعي، وصاحب الهدف الشخصي، والمستشرف للظهور والشهرة، فكانت أعمالهم سلبية المردود على الدعوة، وسبب ذلك أن القيادة تهمل التبكير في إعداد وتدريب الدعاة الثقات وإدخالهم الدورات السياسية والإدارية والإعلامية، فإذا وصلت حالة الانفتاح السياسي: تبدأ آنذاك تفتش عمن يصلح للبرلمان والوزارة والسفارة، فلا تجد من الثقات إلا عدداً قليلاً، لانشغال معظمهم بالتربية التي لها حيثيات أخرى، فتضطر إلى ترشيح دعاة ضعفاء من أهل حب الظهور والدنيويات، لما تعهد عندهم من خبرة إدارية أو لباقة وذكاء، فتكون أخطاء هؤلاء سبباً لتلويث سمعة الدعوة، فيجفل قادة التربية الدعوية، ويتخذوا من هذه التجربة الفاشلة أدلة تؤيد مذهبهم في الزهد بالسياسة، وتكون حالة الجدل وانقسام الصف بين مؤيد ومعارض، والخطأ إنما هو خطأ تخطيطي محض وإهمال قيادي، وكان الواجب على القيادة أن تدرك بفراستها وخلال مراحل نمو الدعوة أنها ستدفع الدعوة إلى الممارسة السياسية يوماً من الأيام، وعندئذ يكون من اللازم التهيؤ لليوم القادم، باختيار رهط من أجود الدعاة لاحتلال المراكز والمناصب السياسية قبل سنوات من التكليف الفعلي، ويكون خلال ذلك منهج تدريبي يؤهلهم، بل الجانب الأكبر في إنضاجهم يكون من أنفسهم هم، فإن أحدهم حين نخبره بأنه سيكون برلمانياً أو وزيراً أو وكيلاً أو مديراً لدائرة أو مؤسسة: فإنه سيكثر المطالعة وتتبع الأخبار والأسرار، ويطيل التأمل والتفكير والتشاور، فينضج، وهو الثقة منذ البداية، فإذا جاء وقت التكليف: يكون أقرب إلى النجاح وإلى الوفاء للدعوة معاً، وأما أن ترتجل القيادة قرار دخول الميدان السياسي بعد دهر من العزلة التربوية فإنها سوف لا تجد أمامها من يصلح لأداء سياسي غير طامع ولاهث، فتكون المشكلة.

□ فهذه نماذج مما يمكن أن يكون علاجاً لظاهرة الضعف التربوي عند الممارسة السياسية، ويبقى الأمر أوسع ويحتاج لإبداع المبدعين ونصيحة الخبراء المجربين، بل يبقى أيضاً محتاجاً لنوعٍ من (النظر النسبي الاجتهادي الخاص) بكل بلد، لاختلاف الظروف والأعراف والمعادلات، ولا يسوغ التقليد في هذا المجال، بل يجب أن نستنبط لكل قطر خطة خاصة في الاستدراك التربوي على سلبيات التعامل السياسي، وبلاد العرب غير بلاد العجم، والأقطار المتطورة مدنياً غير التي لم تدخل خطة التطور بعد، ثم البلاد تتفاوت في مقادير الحرية السياسية، وفي الأعراف الاجتماعية، والمستويات الثقافية، وفي سطوة الإعلام فيها، وفي كل ذلك ما يوجب على كل قيادة في كل قطر أن تعقد مؤتمراً لبحث هذه القضية، بل سلسلة مؤتمرات، للخروج برأي جماعي ناضج، أما أن يبقى الأمر في نطاق التلاوم فقط: فذلك استهلاك للنفوس، وتبقى الأخطاء تكرر نفسها فيكون الإحباط، ويكون لعن السياسة، وتركها لصعلوك ومغامر، وذلك عين الخطأ. □□

٧ منهجية إبداعية في استثمار الخلود

□□ مُنذ أيام طفولتي : كنتُ فتىً ليس مثل بقية الفتيان ، بل أميل إلى الوقار والجد والسكينة ، إذ صحبي وأقراني يتداولون الهزل الرخيص ، والكلام البذيء، والشتائم ، ويحفظ أحدهم قائمة طويلة من الألفاظ العدوانية التي تتهم أعراض الناس ، وأنسابهم ، ويخلطونها بكذب ، ولكني بقيتُ على عفاف اللسان ، والبراءة من الإقذاع ، والصدق ، ولا أذكر أبداً أني خنت أحداً ، أو كذبت عليه، مع وفور الطاعة لأساتذة المدرسة ، واحترام من هو أكبر مني ، وما كنتُ كسولاً ، بل أشارك أقراني لعب الكرة ، والركض ، ولا أغيب عن السباحة ولا ليوم واحد في العطلة الصيفية ، وأنا سبّاح ماهر عبرتُ دجلة وعمري ثماني سنوات فقط دون الاستعانة بأحد ، يوم كان دجلة وافر المياه عريضا ، وتجوالي على الدراجة الهوائية يملأ نصف وقتي ، وكانت دارنا في الأعظمية بجنب بعض بقايا بستان "أصلان باشا" ، فشبعتُ في طفولتي من الرُّطَب والنبق ، نرميه بالحجر أو "المصيادة" فيقع ونلمّه ونأكله بلا غسل ، بل بالنفخ عليه ، ومع ذلك إذا رجعتُ إلى البيت يضع شقيقي الأكبر مجلة "الرسالة" للزيات في يدي وآتي عليها من الغلاف إلى الغلاف ، وأنا لا أفهم منها إلا قليلاً ، ولكنْ تترسب منها في اللاشعور بعض معانيها ، فتضاعفَ سَمْت الجدّ الذي فطرني الله عليه ، وما كان هناك "تلفزيون" يلهينا في ذلك الوقت ، بل كان افتتاح محطته في أواخر سنة ١٩٥٤ بعدما جلبته شركة بريطانية إلى معرض بغداد ، فاشترته الحكومة منها ، وكانت قضية فلسطين تلك الأيام في ذروة الاهتمام ، وانعكس ذلك علينا في صبانا ، وحدثت مظاهرات إسقاط معاهدة بورتسموث ، فزاد انفعالُنا وتداولُنا لحديث السياسة مبكراً ، وبدأت المطابع تنتج كتباً عن تاريخ الحرب العالمية الثانية وقصص رومل وغيره ، فتضاعف اهتمامي ، حتى وجدت نفسي في صفوف الدعوة وأنا ناشئ في المدرسة المتوسطة .

● فأضافت النقلة الدعوية خَفـتين من الجد والـصرامة إلى ما منـحتني إياه الفطرة والظروف السياسية المتأججة ، بحيث يتداول معنا مربونا أخبار الـدول ، والجهاد ، وأوصاف جِنانٍ وفَراديسَ يحتلها الشهداء وأبطال القتال في فلسطين وقناة السويس ، ثم لما سرنا مرحلة أخرى ودفعونا إلى مجالس العلماء ودراسة صحيح البخاري على الشيخ عبد الكريم الملقب بـ "الصاعقة" سَرَتْ إلينا روح صواعقية تقلقنا عن الهزل والمزاح وكثرة الضحك ، ولما شرعنا نحضر دروس وخطب الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي بدأنا نُدرك اختلاف المدارس الاجتهادية الفقهية ، وانحزنا لأقوال ابن تيمية ، وأصبحت لنا جولات عريضة مع مدونات ابن قيّم الجوزية ، إذ ما يزال أترابنا يسرحون ويمرحون ويقتربون من باطل اللهو وينحدرون إلى رخيص الآمال والقول ، وازدادت أشواقنا إلى الجنة لما وُضع في أيدينا "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" لابن القيم ، وبلاد الأفراح هي : الجنّة ، لما فيها من خيرات تجلب السرور للمتنعم بها ، فزاد عُلوّاً مستوى اهتمامنا ، وصرنا خلقاً آخر ، يسوقُنا طموح ، وتسيطر علينا رقابة ذاتية ، ونتج جيل من الشباب كأنهم شيوخ ، يتجردون في عصرٍ ماديٍ كثيف الإغراء ، لكنَّ مسارح الحلال بقيت واسعة علينا ، وكنا أشدّ متعة بعواطفنا من مستعجل رَسَف في أغلال الدنيويات ، ونتج من هذا التصاعد التدريجي استواءٌ لنا في فَلَك الجد والمثابرة الدائبة ، وامتلكنا حصيلة من الأشواق الأخروية ، والنظر إلى ثواب عند الله تتضاءل عندما تتصوره ملذات الدنيا الحلال فضلاً عن الحرام ، لأنّ "المهمة الإصلاحية" التي حُمّلنا إياها تجسمت لنا وأقنعتنا بأنها عملية ضخمة تتطلب نذر النفس ، وكثرة التعلّم والتفكر ، والجلوس المتكرر للنظر في مصالح المسلمين ، ومن طول الوتيرة الجادّة : تحوّلت إلى سلوك تلقائي غير متكلف .

● هنا ، وفي ثنايا هذا "الاندماج القلبي الروحي" مع المهمة الجبارة الدعوية بدأت تسري عندي حالة "اجتهاد" في تحديد "المذهب الأخروي" الذي يُسيّرني ويدفعني ، هي فرع من الاجتهادات الفقهية التي تتمايز بها مذاهب الفقهاء ،

وتشكلت لديّ وفي مُخيّلتي صورة الحياة التي أُريدها في الجنة ، وجعلت أقول لنفسي : ويحك من مشترٍ لشيء مجاني مبذول ! !

لقد تكلمت الآيات والأحاديث الصحيحة عن قصور وحدائق في الجنة ، وأنهار ، ولَبَن وعسل مصفى ، فلماذا تشغل نفسك وهي مضمونة ، وتكثر الدعاء أن تكون هذه الخيرات من جُملة ما يُمنح لك وهي أدنى الجنة ربما ، لكنْ اطلب الجنة في دعائك وسَل الله شيئاً فيها مُبتكراً تحبُّه وقد فاتك في الحياة الدنيا إلا قليلا ! !

ويكون إلحاح من الصالحين أن يرزقهم الله الحُور العين الحِسان ، فأقول لنفسي : ما هذا والأمر أسهل ؟ بل ادع الله أن يميتك شهيداً ، منحةً منه لما يعلم من عفاف وبذل ، فتزف الشهادةُ لك سبعينَ حورية ، وعندئذ اختارُهنّ عشر عربيات ، وعشر غربيات بيض ، وعشر زنجيات سود ، وعشر صينيات ، وعشر يابانيات ، وعشر فلبينيات ، ثم البقية من الأمم الأخرى .

وكل ذلك إنما هو هامش ربح الجنة ، ولكن أطلب اللذات الكبار ، ورأس المال ، والعوالي ، والنوادر ، والغرائب ، والامتيازات ، فإن النشوة في هذه .

● وأول أشواقي : إلى الخيل العربية الرشيقة ، فإني أريد أن يكون لي فَرَس أدهم أسود يلمع كأنه فحمة ، وآخر أبيض كأنه قُطنة ، وأبلق يجمع بُقَعاً من السواد على البياض ، فيسبحنَ بي في براري الجنة الفسيحة سويعاتٍ كل يوم ، وقد حُرمت من الفروسية في الدنيا ، ولم تُتح لي رغم شدة شغفي ، فلعل الله سبحانه يَمُنّ بها عليّ ، حتى إذا امتلأت نفسي من ركوب الخيل عند الضحى العالي : أردفتُ واحدة من نسائي خلفي ، واخترقت غابات الجنة ، ليكون إيابي ظهراً .

لكني في بعض الأيام أريد أن تسرع بي دراجة نارية أو أُسابق جيراني ، فإني محروم منها كذلك ، حتى أميل عند الاستدارات وإن ركبتي لتكاد تلامس الأرض، كما أرى في التلفزيون .

وساعة أتجول بمنطاد لأرى تضاريس الجنة من سمائها ، وفي أخرى أهبط بالمظلة وأتقلب في جو الجنة ، وفي يوم ثالث تُحلق بي طائرة شراعية فأطوف حول الجبل البعيد .

إلا أن ذروة لذتي تكون في أن أقود عشرة من أصحابي ، في زوارق صغيرة ، نناحر تيارات أنهار الجنة في عمق غاباتها وبين جبالها ، فإني كنتُ دعوتُ الدعاة إلى مغامرات مثيلة في أنهار آسيا والأمازون والميسيسبي ، ولكن تطويق العمل الإسلامي لنا في زمن الأزمات والحاجة إلى كثرة الاجتماعات منعتنا من ذلك ، وقياداتنا يابسة لا ترى في مثل هذه المغامرات تربية لنا وتنمية لشخصياتنا ، فلم تأذن لنا ، ولعل ولعي بذلك إنما هو صدى لكثرة السباحة في دجلة في صباي وأول شبابي ، فأريد أن أستعيد الذكريات ، إلا أني أخاف الثعابين جداً ، وقد أخبرني شيوخي أن لا وجود لها في غابات الجنة .

● وكل ذلك تمهيد وتحريك للفكر ، فليست خُطتي في الجنة خطة طعام ولهو ، ولكن أهل الإبداع يقولون أن ومضاته لا تتألق إلا من خلال قوادح المغامرة وتبديل البيئة وعنفوان الحركة وتجديد المناظر ، فجعلت فروسية الخيل والدراجات والمناطيد والمغامرات سبباً لتحريك عقلي وذكائي ، ومقدمة لنيل لذتي العظمى اليومية التي أريدها على مدى عشرة الآف سنة من امتداد الخلود..

لذتي الكبرى ومطلبي أن تكون في قصري في الجنة مكتبة إسلامية ومعرفية وعلمية وفنية ، كاملة لا نقصان فيها ، فآخذ القرآن الكريم أولاً ، وأجلس عند عتبة باب قصر عبد الله بن عباس أنتظر خروجه ، لأطلب منه التلمذة وأن يأذن لي بدرس يومي عصراً على مدى سنين يشرح لي أسرار القرآن ، ولغته ، وأعاجيبه .

● حتى إذا شبعت من علمه : دققت باب الطبري ليمنحني المزيد من معاني القرآن وفقهه ، وألبث معه السنوات الطويلة قبل أن أتحول إلى القرطبي ، والزمخشري ، والآلوسي ، وابن عاشور ، وسيد قطب ، وكل منهم يزيد لي

حروفاً وفوائد ، حتى أستوفي علم القرآن من مائتي مُفسِّر ، ودفاتري معي ، وقلمي خلف أُذني ، ونعلي خفيف ، على هيئة طُلاب العلم التلامذة ، فإني حُرمت مثل هذه المجالس في الدنيا إلا قليلا ، وأُريد أن أشبع وأنهل ، غير أن اخي "خُونا الجَكَني" في تيندوف بصحراء الجزائر ، وأخي "غلام" السائح ، قد اغرياني أنّ ثـمّة علم ولُغة في حاضرة "شنقيط" بموريتانيا ، فأنا أريد لذلك أن أمكث في الخاتمة عند الـمُفسِّر الشنقيطي مدة أطول ، وأن أذهب له في الجنة على ناقة ، وأن التقي به في صحراء الجنة ، وكان أستاذي الدكتور جعفر شيخ إدريس يُحدثني عن شيخ له في السودان يأبى إلا أن يأتي إلى مجلس التدريس على ناقة ، مبالغة في الحفاظ على صورة الحياة السلفية ، فأُريد أن أقلده .

● فإذا استوفيت دلائل الفرقان وإعجازه : تناولت من مكتبتي مدونة الحديث النبوي الشريف الكبرى التي استخرجها حبيبي "البخاري" وسمّاها "الجامع الصحيح" ، فلا أحتاج إلى انتظار ولا إلى دق الباب ، بل أجده ينتظرني مبتسماً متطلعاً مشتاقاً ، بما وصله من خبر عنّي ، وعن ولعي بالحديث وعلم الرجال ، وبشرطه الذي تعمقت فيه وصار يُسمى بين العلماء "شرط البخاري" ، وهو يؤخذ بالاستقراء والاستعراض لا بالنص ، فبعد ساعة أطلب فيها منه أن يريني دِقّة رميه بالسهم فيُصيب الهدف عشرة على عشرة ، بالكمال ، ينفد صبري فاطلب منه أن يبدأ رواية صحيحه عليّ ، مع الشرح وبيان أحوال السند والرجال ، فأمكث معه السنوات حتى أحفظ ما هنالك ويجيزني ، وأرجع إلى حورياتي أبشرهن ، وأمشي بينهن مشية الخُيلاء والزهو ، وأتطاول على صاحب لي حَبَسَ نفسَه عند الضفة يشرب ، ويأكل لحم الطير والعنب ، وعاف صحبة البخاري ، مع أني أعطيته عنوانه ، هناك بين البُحيرة والجبل المنيف .

● ثم أستاذنُ البخاري أن أطوف على الإمام مُسلم لأقرأ عليه صحيحه ، وعلى أبي داود والنّسائي والترمذي وابن ماجة والدارقطني وأبي حاتم ، في مائة من أصحاب المدونات الحديثية يروون لي أسانيدهم مباشرة ، ليعلو سندي ، ثم

بطبقات الشرّاح ، ابن حجر العسقلاني والنووي ، في ثلاثة آلاف من أهل العلم وتأويل الحديث ومعرفة الرجال وتأصيل الاجتهاد ، واحداً بعد الآخر ، وقلمي ينسخ ، ونَفَسي محبوس ، وتحرّشاتي بهم لا تنقطع ، ألاحقهم بالسؤال ، وأستخرج من كل جواب سؤالاً جديداً ، حتى تنقضي ألوف سنين ، وهم في الفرح الغامر ، أنهم وجدوا مستهلكاً شارياً ، وتلميذاً دائباً ، ومكافئاً في الحوار .

● حتى إذا استوفيت غرضي من هذا الفيلق : أرسلتُ شفعاء إلى الخلفاء الراشدين أن يأذنوا بزيارات ، فأتأدب ولا ألحّ بسؤال ، فيروا أخلاقي ، فيتبسطوا ، ويشرعوا في الملاطفة ، فتدبُّ فيّ الشجاعة رويداً رويداً ، حتى إذا شبعتُ : تحولت إلى بقية الصحابة ، الأول فالأول ، والأعلم فالأعلم ، فيروون لي السيرة ، وأخبار بَدْر وأُحُد والمعارك والغزوات ، والشهداء ، وحياة مكة والمدينة ، ووفود العرب ، وأخبار معارك القادسية واليرموك وكلّ الفتوح ، ودخول الأمم في الإسلام ، ونشوء جيل التابعين ، ومَن قاتل منهم بشجاعة ، ومَن رَصَد نفسه للعلم ، حتى أنزل إلى مالك وأبي حنيفة والشافعي ، فامكث عند كل واحد منهم الدهرَ الطويل ، يعلمني فقهه وأصول مذهبه وأسباب اجتهاداته ، وتكون أيامي مع مالكٍ بخاصة مخلوطة برحمة له ، لأنه كان مصاباً بسُكّر الدم مثلي ، وهو يحب الحلواء مثلي والرُطب ، ولا يستطيع الإكثار منهما ولا أستطيع ، لذلك أتعمد أن ألتقط له قبل كل زيارة ما يملأ طبقاً من "البرحي" و"الخلاص" و"بقلة النارين" و"الخستاوي" و"المجدول" وأنواع رُطَب الجنة وأهديها له ، مع أنواع حلوى بالزعفران أوصي زوجاتي أن يصنعنها له ، فإنه يحب ذلك ، مُذ أهداه الإمام الليث بن سعد حمل سفينة من الزعفران والسُكر المصري ، وكأنّ إكثاره منهما كان السبب في مرض السكر ، وبسبب هداياي له يشرع في محاباتي ، ويهديني طبعة بماء الذهب من "الموطأ" ، ويخفض جناحه لي ، حتى أني لأعجب : أين ذهبت فورات غضبه على تلامذته ، وتعييره لفاضل منهم أنه من روّاد دار قُدامة بسوق المدينة ، حيث مجتمع

مُلاعبي الطيور ؟ ! وكأني على مدى صلتي به تعتريني رهبة أن ينسبني إلى دار قدامة آخر ببغداد ، أو إلى سوق الغزل تحت منارة مسجد الخلفاء القديم حيث اجتماع أصحاب الطير والحَمام ، ولكنّ أخلاق الجنة غير أخلاق الدنيا ، وتمر تلمذتي له بسلام .

● إنما مكوثي الأطول ، وانفعالي الأعمق : يكون حين أرجع من جولة لي في الأرباض الغربية ، وأنا على مُهري الأسود ، فأجد أحمد بن حنبل ينتظرني عند مَدخل بستاني ، على عادته الجميلة في التعرف والمبادأة والتواضع ، وكان الشافعي هو الذي أسرّ له بخبري وعنواني ، فاستعجل ولم يُعوّل على منهجي المزدحم وخطتي المتأنية ، فملكني حياء أمام نور صدق تبعث به أسارير وجهه الكريم ، ثم استرسلت ، وانطلق مني سيل الأسئلة ، عن محنته وصبره ووعيه وصفاء عقيدته وتمييزه للبدعة ، فروى لي دقائق أخباره ، وأخبار أصحابه وبطولاتهم معه ، وطلب منهم أن يصحبوه في زياراته الأخرى لي ، فعرفني بهم ، وكان يوماً مشهوداً لما فاجأني بالبطل الواعي والثائر الطموح وركن الدفاع بالسلاح عن السُنّة الغراء تلميذه وشيخ البخاري أحمد بن نصر بن سيف الخزاعي الشهيد ، فتلعثمت أمامه ، وطفقتُ أتمسح به وأمد يدي على صدره ومنكبه ورأسه ، عسى أن تسري إليّ منه عدوى الخير ، لذلك لزمتُه دهراً بعد أن روى لي الإمام أحمد مسنده وتفاريع مذهبه ، واشتقت في الجنة إلى التأليف أيضاً ، لا السماع والرواية فقط ، فاخترت أن أكتب تجربته الفريدة في ظلال الرقابة الحنبلية .

● فلما طبعته مؤسسة "الرسالة" في الجنة ، واعتنى الأستاذ رضوان دعبول بإخراجه : صرت أزور الشهداء وأهديهم الكتاب ، فمن ثمّ رآه الأبرار في أيادي "عمر محمود" و"إياد العزي" و"عمر حوران" و"محمود الهاشمي" وأخته "ميسون الهاشمية" و"رعد الدليمي" ورافع راية البصرة "يوسف الحسّان" وعميد الفرات "حبيب الراوي" ومثال البراءة "جبار كاظم الشمري" ، والنبيل بن النبيل "ليث

اسماعيل الراوي، ثم شاع من بعدهم في أيادي شهداء فلسطين ، وشهداء شعوب الأمة الإسلامية ، وعلى مدى الأجيال العديدة ، وتأسس "مذهب الجهاد الواعي" ، وتأسست شروحه الجلية التي أدلى بها شهيد إيران "ناصر سبحاني" .

● وهؤلاء الرهط الذين أنتسب لهم : تتيح قصصهم أن أمشي فخوراً ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس ، أثناء جولاتي على ألفٍ من أبناء الأجيال الأخيرة من الأمة حوتهم منهجية حركتي في الجنة ، من بين قادة الدعوة الإسلامية ، وزعماء الجهاد ، وكبار الفقهاء ، والمتبرعين بالأموال ، وأصحاب القلم ، والشعراء .

□□ آنذاك ، وعند هذه المرحلة المتقدمة يكون استئذاني لزيارة خير خلق الله كُلهم ، وسيد سادات العرب والعجم ، مولى الثقلين ، نبينا مُحمّد ﷺ ، مَن حسُنت جميع خِصاله ، وكشف الدجى بجَماله ، عَطّر اللهُ ذكره الكريم ، بعطرِ شذيٍ من صلاةٍ وتسليم .

وليست هي قلة أدب أن أجعل زيارته بعد زيارة أمته ، بل لأن المقام يقتضي أن أتفقه وأتعلم وأتأدب قبل المثول أمام حضرته ، وأن لا يكون مثولي مثول جاهل ، فكانت تلك الجولات العلمية ، وفي المنهج أن لا أُثقل عليه ، وأن أعرف قدْر نفسي ، فلا أطيل الحوار معه ، ولكن أطلب منه أن يدعو الله أن يأذن لملائكته الكرام أن يعرضوا علي تسجيلات مصورة لسيرته الشريفة بمثل تصوير الفيديو ، ولكن بأبعاد ثلاثة ، أرى فيها وقائع أيامه ومعاركه وصَلاته وهجرته ، بل وطفولته وأيام شبابه ، فإذا كان البشر قد اهتدوا للفيديو ، فمن باب أولى أن يحوز الملائكة شيئاً أدق وأرقى نرى من خلاله كل التاريخ .

● لذلك سأطلب منه أن يدعو الله أن يأذن للملائكة أن يروني تسجيلات متصلة على مدى آلاف السنين ، لنزول آدم عليه السلام وحواء إلى الأرض ، وذرياتهم الأولى قابيل وهابيل ، وتوالي الأجيال ، والنبوات الأولى والأقوام ، ونوح والذين معه ، وإبراهيم عليه السلام وهجرته وأولاده، وأنبياء وملوك بني إسرائيل إلى المسيح بن مريم وتصوير معجزاته ، ورفعه ، والكيد الذي تعرّض له ، وبقايا

الحنيفية في العرب ، حتى قبيل بعثة النبي مُحمّد ﷺ ، كل ذلك وخلال ألوف سنين من استطراد الخلود أرى التاريخ القديم وسير الأنبياء دقيقة بعد دقيقة ، بالأبعاد الثلاثة ، كأني أشاهد المشاهد رأى العين .

● **فكأني وأنا أشكر الله وأشكر النبي ﷺ على إجابة رغبتي الإيجابية : ألمح الحسن والحسين رضي الله عنهما يخرجان من وراء ظهره الشريف ، فأطير من الفرح ، وأعانق وألثم الأيادي والأكتاف ، ومنعني الحياء من جهر بالسلام على فاطمة الزهراء في داخل البيت ، ومعها نساء النبي وبقية بناته ، رضي الله عنهن ، فأومأت وخفضت الصوت وألجمني الأدب .**

● فلما ذقت طعم وحلاوة رؤية التاريخ الحقيقي غير مزور ولا مبتور الخبر : أغراني الأمر فرجوت النبي ﷺ **أن يشفع لي عند الله تعالى أن يجدد أمره للملائكة الكرام أن يُروني سبع مسلسلات طويلة من الفيديو المجسم على مدى ألوف السنين :**

□ **الأول : أن يجتمع الطبري وابن خلدون والخطيب البغدادي وابن العديم والجبرتي ، في مائة من المؤرخين الذين أرخوا التاريخ الإسلامي ، وأنا بينهم ، فنرى معاً وبتعليقات منهم كل تاريخنا المشرف ،** وأخبار خلفاء بني أمية وبني العباس ، ومن بعدهم من العثمانيين والغزنويين ، ونَمرُّ بصلاح الدين الأيوبي ، وألب أرسلان ، وفتح القسطنطينية ، وفتح الهند ، والاندفاع نحو الصين ، ومحنة الأندلس ، وجهاد الشيخ شامل للروس في القوقاس ، وثورات الجزائر ، وبطولات عمر المختار ، ومأثرة الأفغان ، والصياغة العراقية الجديدة لمذهب نقض العولمة .

□ **والمسلسل الثاني : أرى فيه تاريخ البشرية ، والحضارات ، والمدنيات ،** وحوادث بابل ونينوى ، وأثينا وروما ، وأخبار الصين ، والفراعنة ، والإنسان القديم ، ومعيشته وصيده وحياته الأولى في الغابات والجبال ، وفي العصر

الجليدي ، وأخبار عاد وثمود ، والعرب البائدة ، وحِمْيَر وسد مأرب وسيل العرم ، وأجيالَ أخرى نجهل خبرها .

☐ والثالث : أن اسمع للفلاسفة يتحدثون بصواب وخطأ ، وكيف أن الملائكة تقول للمخلط منهم والملحد : اخسأ فلن تعدو قدْرَك ، وهوميروس ، وهيرودوتس ، وشعراء الأمم ، وخطبائها ، وكتّابها ، ومتاهات أفلاطون وأرسطو ، وتميّز سقراط عنهما وقربه من التوحيد ، ونشأة الدول الحديثة ، والخطط والمنهجيات ، والصراع الاستعماري ، والثورات التحررية ، واكتشاف أميركا ، وتطورها ، والنهضة الصناعية ، والمخترعات ، ونابليون ، والحربين العالميتين ، وقيام إسرائيل ، ودقائق الحياة المعاصرة .

☐ والرابع : أن تريني الملائكة عجيب خلق الله للحيوان والنبات والجماد ، والأكوان والمجرّات والشموس والكواكب ، وكيف بدأ الخلق، وكيف حصل التطور ، وانتقل معهم إلى الذرة والإلكترونات والبروتونات وتكوين العناصر تصاعدياً وفق الجدول الدوري ، والاتحاد الجزيئي ، والحقيقة الجسيمية والموجية للضوء ، وانطلاق الفوتونات ، والكمّات ، وأشكال الطاقة ، وارتيابات هايزنبرغ، ونسبية اينشتاين ، فأكون على بيّنة من العلم الحقيقي وتركيبات المواد ، ثم إني أحب أن تعلمني الملائكة الرياضيات المعقدة المتقدمة ، فإني أهواها ، وحرمتني منها السياسة ومعالجة قضايا الأمة ومشاكلها ، وأن يأذن الله بإرسال ماكس بلانك الألماني إليّ ليعلمني ويشرح لي كيف اكتشف "الثابت" حين رصد سيل الفوتونات ، وأن يرسل لي بعده ألف عالم أضاف الواحد منهم اكتشافاً علمياً إلى الرصيد الإنساني ، فاسمع لشرحهم : كيف فعلوا ذلك ؟

☐ والخامس : أن يُنادى في الجنة أن الله أذن لعباده أن يستأنفوا سوق "عكاظ" ، فأرى واسمع أصحاب المعلقات العشر يتغنون بها ، ويشرحون لنا لغتها، وأريد أن أطيل محاورتي لعنترة ، وان يشرح لي : ويكَ عنترُ : أقدِمِ !! ثم شعراء الجاهلية جميعاً ، وشعراء صدر الإسلام ، والبحتري ، والمتنبي ، في ألف

شاعر منهم حافظ الشيرازي ، وسعدي الشيرازي ، نزولاً إلى البارودي وشوقي وإقبال وطبقات المعاصرين ، والأميري السوري ، ووليد الأعظمي العراقي، وآل خليفة الجزائري، ونبيل إيران أحمد مفتي زادة في روحانياته وآهاته اللواعج .

□ والسادسة : خاصة عائلية ، ولغيري أن يطلب خصوصية مثلها ، وفيها تريني الملائكة آبائي وأجدادي وجدّاتي ، جيلاً بعد جيل ، إلى يوم البشرية القديم وأولاد آدم ، صورهم ، وأخلاقهم ، وبيوتهم ، وحفلات أعراسهم ، وأين عاشوا، وفي أي سنة ، ومَن كان لهم من الأبناء والبنات ، فاصعد إلى جدّي العاشر علي بك العِزي المعاصر للسلطان العثماني مراد الرابع ، والذي عاونه في تحرير بغداد من الحكم الصفوي ، وأصعد أكثر لأعرف "عز بن يحيى بن مصلح" الذي ننتمي له ، وكان "عُبادياً" ، ثم إلى عامر بن صعصعة جده الأعلى ، ثم إلى مضر وعدنان ، وأريد أن أزور كل جدّ وجدة أياماً ، وان تطبخ لي الواحدة تلو الأخرى "البامية" ، وتخبز لي ، وتثرد لي ، و"الباقلاء" والطعام البغدادي .

□ أما المسلسل السابع : فهو سر أكتمه ولا أبوح به ، فاستعمل فراستك ، إنما هو جدّ لا هزل ، وتعرفه بالذكاء والإخلاص معاً ، لا الذكاء فقط ، وإذا كنتَ على الدرب فما أقرب أن تميزه .

□ فإذا ارتويت، وأشبعتُ نهمي من كل هذه العلوم والمعارف، وأرضيتُ فضولي الشديد بالإطلاع على دقائق ما حدث في تاريخ العلم: طلبتُ من الملائكة الكرام أن يستأذنوا ربّ العالمين في أن يشيدوا لي مختبراً فيه منظار إلكتروني عظيم له قدرة على التكبير فائقة أستطيع معها أن أرى الذرات وأنويتها ومدارات الإلكترونات حولها بوضوح، فأطفق استعرض العناصر في تسلسلها، وكيف تدأب في حركتها الإلكترونات، وكيف تتحد الذرات لتكوين جزيئات المركبات الكيماوية، كل ذلك بشكل عملي وذاتي، ولا براوية الملائكة، وأدع بجانبي عن اليمين عالماً فيزياوياً مؤمناً دخل بإيمانه الجنة، وعن يساري عالماً كيمياوياً من أهل الإيمان كذلك وجوزي بالجنة، وأتركهما على رسلهما يشرحان

لي على مدى عشرة آلاف سنة الحالات الذرية والجزيئية كلها، حتى يتضاعف يقيني بقدرة الله تعالى ألف مرة، وما عجزنا عنه أسأل الملائكة الفيزياويين والكيماويين أن يزيدوا لي التوضيح، وكل ذلك مع التجارب المختبرية ورؤية الحقيقة بالمجهر الجبّار، حتى إذا امتلأت عِلماً وإطلاعاً: دعوتُ أصحابي وأصدقائي لرؤية ما رأيت، مع الشرح، وأنحت لهم (دورة) أمدها ألف سنة، لأنهم لا يصبرون صبري، ويريدون الرجوع إلى أهليهم بسرعة، وأولهم (عادل الشويخ)، فقد مات والتطلع يستبد به، وله حق في أن أجاريه.

● وأظن أن ألف سنة بعد ذلك لا تكاد تكفي للإفاقة من الدهشة التي ستستولي عليّ من مشاهدة هذا التكوين الذري والجزيئي، وسيبقى عقلي محجوزاً للتأمل في هذه الصنعة العجيبة التي أبدعها رب العالمين سبحانه، حتى إذا هدأت نفسي: دعوت الله أن يعفو عن خمسة آلاف عامل بناء ونجار وحداد وصبّاغ وزجّاج من الغشاشين والذين تركوا الصلاة فجعل مصيرهم إلى جهنم، فأشفع لهم بإلحاح أن يجعل عذابهم عملاً في الجنة تحت إمرتي في حقول مهنهم التي أجادوها في الدنيا، فأبني بهم مدينة كاملة وفق ذوقي المعماري، ولست أريد أن يبنيها لي الجن مثل سليمان، لأن الجن ينجزونها بسرعة، وأنا أريد استثمار الخلود والإبطاء ومزيد الاستمتاع بما حُرمت منه في الدنيا، وقد تجمعتْ عندي حصيلة من أذواق معمارية أريد تطبيقها، فأضع تخطيطاً لمدينة تجمع كل الإبداع المعماري الممكن، واجتهد في تكوين مجلس استشاري لي من كبار المعماريين المؤمنين الذين أبدعوا في الحياة الدنيا وقدموا أعمالاً فنية رائعة، وأشفع لآخرين من المعماريين الذين لم يسجدوا فأضمهم إلى هذا المجلس، ونحاول جميعاً على مدى خمسة آلاف سنة، إنتاج تُحف معمارية، من مساجد وقصور ومدارس ومكتبات وصروح متنوعة الأغراض، وأن نمنح كل حي وقسم من هذه المدينة هوية مثيلة لما كان في الحياة الدنيا، مع زيادة إتقان وجمال، فيكون فيها الحي البغدادي، والدمشقي، واليماني، والمصري، والمغربي، والأندلسي، والأفريقي،

والهندي، والصيني، والسمرقندي، والاسطمبولي، والإغريقي، والروماني، والبابلي، والآشوري، والفرعوني، مع لمسات في كلها لم يرها أهل الدنيا قط، وأجعل في شوارعها من النوافير والنُصُب والأعمال التجريدية النحتية ما يقابل أجمل خمسة آلاف منها موجودة في أنحاء الأرض اليوم، وأزيد عليها مثلها مبتكرة جديدة من إبداع أعلى تتيحه معطيات الجنة، ثم أسأل الله تعالى أن يُلحق بنا رهط كبار الخطاطين، فأعهد إلى كلٍ من ابن البوّاب، وياقوت، وحمد الأماسي، وراقم، وحافظ عثمان، وزهدي، وسيد إبراهيم، وبدوي، وأضرابهم: أن يخط سطراً يحيط بجدران أحد أبنية وصروح هذه المدينة، ويكون الحي البغدادي محجوزاً لإبداع هاشم البغدادي وتلامذته: مهدي، وعبد الغني عبد العزيز، ووليد الأعظمي، وعلي ندا، ونزار الدوري، وصلاح شيرزاد، فتكون آيات الجمال والعظمة والأبهة المتناسقة المتجانسة ظاهرة للعيان، ثم أتيح لأفواج المؤمنين من أهل الجنة أن تمتع أنظارها بجمال هذه المدينة البديعة، واستعمال منازلها ومدارسها، والصلاة في مساجدها، ويرتفع التسبيح، والنشوة تأخذ بمجامع قلبي، وعلى ثغر كل معماري من جماعتي بسمة، تُسابقها دمعة، فرحاً واعتداداً بهذا الإنجاز الجمالي.

● إلا أن لي مع الخطاطين بخاصة شؤوناً أخرى، فإني سأستثمر فرصة تفرغهم لإبداع أعمالهم في مدينة الإيمان لأن أقوم بالتلمذة لهم، فإني ما زلت أعشق الخط العربي، لكن الله لم يرزقني ما رزقهم، فأتعلم منهم براعتهم حتى أصل إلى درجة الإجادة، فيجيزني الواحد منهم بعد الآخر، وأكتب حِلية الإجازة، وأخط القرآن الكريم مرة بعد مرة، بالنسخ والثلث والتعليق والديواني، كل مرة على مذهب أحد منهم وطريقته، ثم أشرع في خط صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسيرة المطهرة، ثم خط كل قصيدة قالها شاعر في مدح سيد الأولين والآخرين، ومَن كشف الدجى بجماله، وحسنت جميع خصاله، سيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى صحبه وآله، حتى تنقضي ألوف سنين وأنا أرفل في

عطايا القصبات، وأبعث الأنوار من خلال حروف لغة العرب، وأملأ أرجاء الجنة وقصور الصالحين بلوحاتي التي أهديها لهم، ورسائلي الاخوانية إلى أقراني، وشهداء الجهاد، وعلماء الشرع، وكل متذوق مدني الطبع، حضاري المنزع، معرفي الولع، وأمشق لهم بأنواع الخطوط، بَيْدَ أن الديواني أحكره لرسائلي العاطفية الغرامية إلى صويحباتي من الحوريات، على ورق معطر بعطر الفُل الرازقي والياسمين.

● حتى إذا استوفيت تلبية أشواقي الخطية: كتبتُ عريضة إلى رب العالمين، وأطلب من ألف نبيل من سادات أهل الجنة أن يوقعوها معي، وأرفعها مع الملائكة الأبرار، أسألُ اللهَ فيها أن يغفر ويتوب على ألف شاعر أسرف على نفسه وغفل وجارى هواه، ويدخلهم الجنة، ويتيح لهم الانضمام إلى شعراء الإيمان الذين ينعمون في البحبوحة والأرياض الخضراء وراء أنهار الخمر والعسل وخلف جبل الأدب، وبالثلثين نقيم مهرجاناً شعرياً كل ثلاثاء على مدى عشرة آلاف سنة، يروون فيه دواوينهم وحماساتهم وغزلهم، ويزيدون عليه من إبداعهم الجديد ما يشاء الله، فتعلو بذلك أسانيدي الشعرية كما علت أسانيدي الحديثية والعلمية، حتى أصل إلى درجة الامتلاء والانفعال والانغماس، فأكتشف فجأة أن الله تعالى يُنطق لساني بشعر رقيق ليِّن، وبقصائد هادرة أحياناً، ويعقد مجْمَع الشعراء جلسة يقررون فيها قبولي شاعراً ضمن ناديهم، فيهزني الفرح، وتكون لقلبي اجنحة، فأطفق أرفرف وأطير، فأشدو لهم في مهرجان خاص بي، وأرتكب الإبداع، وأقترف الحث، وأترك بصمتي على من هنالك.

☐ وهكذا تجتمع لي مُكنة علمية، وتجربة تاريخية، وأحاسيس أدبية، وجماليات وفنيات ومعماريات، فتعقد جمهرة من الدعاة مؤتمراً تأسيسياً لبناء (دعوة إسلامية في الجنة) تستوفي شروط العمل والتنظيم والتربية والتطوير والنمط القيادي، مع شبكة من المؤسسات التنفيذية، والوصول إلى أداء نموذجي كانت تمنعنا منه قوانين الطوارئ وشهوات المستبدين ومنغصات الدنيا المتنوعة، وبعد أن يبايع هذا المؤتمر

باعث النهضة الإسلامية الإمام الشهيد حسن البنا مُرشداً لهذا الكيان الدعوي الفردوسي ومعه في مجلس القيادة والشورى رهط الزعماء من أمثال أبي الأعلى المودودي وبديع الزمان النورسي وابن باديس والهضيبي والتلمساني: يتوجهون لي بتكليفٍ شريفٍ: أن أدون خطة هذه الدعوة وفق (مذهب فقه الدعوة) الذي اعتنقته في أيام المعاناة والشدائد، مع تطويره بما حصلت عليه من علوم في حياة النعيم، فأقبل التكليف، وأول ما أبدأ به: أن قيام الدعوة ليس من شرطه وجود فساد لننهى عنه ونقابله بالإصلاح، بل الدعوة تكليف مطلق لإظهار العبادة، والتسبيح والتمجيد لله، والارتقاء بالمستويات، والتطوير، وجمع الكلمة. ثم نشرع لهن الكتلة بتوزيع الأعمال وتمتين التنظيم واختيار المنهج، وتوصيف واجبات المؤسسات واختيار إداراتها، ومجاميع النشاط وفِرَق الأداء الإعلامي وتسمية رؤساء تحرير الصحف والمجلات والمواقع الإنترنيتية، وعمداء معاهد الدراسات ومراكز التدريب، مع إرساء قواعد الحوار والشورى خلال كل ذلك.

● لكني عند التخطيط لهذا العمل الدعوي المثالي سأقوم بالتركيز بصفة خاصة مكثفة على النشاط النسوي، فإن الأخوات في الحياة الدنيا ظلمهن الدعاة، وجعلوا عملهن ثانوياً في الأهمية، وقدروا لهن أقل الميزانيات، ومنحوهن آخر الاهتمامات، وأعرضوا عن إبداعهن، وأريد الاستدراك والتعويض وفسح المجال لهن في هذه التجربة الفردوسية، وعلى هامش اختياراتنا للرئيسات والمقدمات والقائدات سأتولى التذكير بمساعداتي في أعمالي في الدنيا: إيمان بنت الحَديثي، ورُفيدة بنت الراوي، وخلود بنت المعطي، و ديمة بنت التميمي، وأن يُمنحن مناصب شرفية، وقياساً: منح شيء مثيل لزوجتي الهاشمية بنت السامرائي بما خدمت ضيوفي، ولزوجتي الحنينة بنت البَدَل، وجعلها راعية الفلبينيات في تنظيم الجنة، وأما موقع الإنترنيت النسوي فهو محجوز باسم لُبابة بنت أبي الحارث القيسية العراقية، وهي بمنزلة بنتي مياسة العزية التي أبدعت في مقالاتها باللغة الإنكليزية في الصحافة الكندية عن القضيتين الفلسطينية والعراقية.

● فهذه العشرات المتتابعة من ألوف السنين ستمر سراعاً مهما انغمسنا واندمجنا مع العلوم والفنون والعمارة والشعر والعمل الدعوي المثالي، ويبقى (الخلود) أطول، وقضية استثماره من خلال حلول إبداعية أرحب وأوسع، لذلك لا أرى من حلّ دائم غير أن يرفع الله تعالى بيته الحرام ومسجد نبيه الكريم في المدينة إلى الجنة، فننشغل على مدى الخلود بحج وعمرة، وبصلاة خلف نبيه صلى الله عليه وسلم وبحضرة كل الصحابة أجمعين وصالحي المؤمنين في كل الأجيال، فإنا لم نشبع في الحياة الدنيا من ذلك، ويبلغ اندماجنا ذروته، وطربنا أعلاه، خمس مرات في اليوم حين يرفع بلال بن رباح رضي الله عنه الأذان، فترقص قلوبنا من شدة الانفعال والنشوة، ثم يأتينا الإذن بين الفَنية والأخرى أن نصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفوف الأخيرة، فحدّث ولا حرج عن سعادة تغمرنا وقراءة مُحمّدية تهزنا وتطير معها الأفئدة، ويفجؤنا أحياناً أبو موسى الأشعري بتلاوة تزيد انغماسنا، ولكني عند الرجوع إلى قصري على التل الذي بين الأنهار الأربعة: أمكث كل مرة قليلاً عند الشيخ مصطفى رفعت، فيصدح، فأخشع، ثم عند الشيخ عبد اللطيف الشعشاعي، فيقرأ من سورة الأحزاب بفخامة، ويهدر، فأرهب، وينطلق لساني بتمجيد، إنما أمكث أطول عند شيخي عبد القادر الخطيب شيخ قُرّاء العراق، فيعرف لماذا جئته، فيشرع يقرأ لي من آل عمران والحاميمات والرحمن بلحن (الماهوري) البغدادي الأصيل، فأنسى نفسي، ويعيد لي البهجة، وأندمج، حتى يوافيني غلام برسالة من إحدى حورياتي، تقول أنها استبطأتني، فأعلم أنها على حق، فأنصرف، فتسرف.

● والمشكلة أن الحياة الأخروية خالدة، وهذه المخالطات والزيارات وجلسات التعلم والدرس ورؤية الفيديو الثلاثي الأبعاد تستغرق عشرات ألوف السنين، إنما: ماذا بعد ذلك؟ هل أكرر وأعيد مثل مناهج الأسر الدعوية؟ أم أرجع عامياً بعد دهر الاستعلاء العلمي والهِمَمي فأطلب أطايب طعام الجنة ومزيد لذات، وأنزل عن مستوى التحليق السامي؟.

بلى: قد يكون استعراض الفن الناجح المملوء بالمعنى أو مسحة الجمال سبباً لاستمتاعٍ منهجيٍ إبداعي آخر لألوفٍ من سنوات الخلود، ولكن ماذا بعد؟.

كما علمتكم طريق تطوير الحياة في الجنة، فعلموني وأفتوني أيها الأخوة!!.

وكنتُ أظن أن هذا التمني الواعي والتميز النوعي في دعاء التنعم الأخروي إنما هو سبق لي، حتى رأيت خبراً طريفاً لبعض رجال شنقيط، فعلمت أني مسبوق وأنه حاز الامتياز قبلي، فقد كان أمحمد بن محمد اليعقوبي المعروف بابن الطلب شاعراً مُجيداً على طريقة الأولين، فصنع قصيدة فيها ذكر الصحراء والبداوة والصيد والسهام، فرآها في نفسه أعلى من قصيدة الصحابي الشماخ بن ضرار الغطفاني في ذلك، وقال يوماً بعدما نظم جيميته وأبرزها للناس: (أرجو من الله أن أقعد أنا والشمّاخ بن ضرار في نادٍ من أهل الجنة، وننشد بين أيديهم قصيدتينا، لتعلم أيهم أحسن!!)[1].

والشماخ هو صاحب (القوس العذراء) التي باعها فندم وقال فيها شعراً طوّره محمود محمد شاكر إلى ملحمة شعرية رائعة.

ومرة أخرى عارض ابن الطلب قصيدة للصحابي حُميد بن ثور الهلالي فقال: (أرجو من الله أني أنا وحُميد بن ثور تنشد قصيدتينا في نادٍ من أهل الجنة، فيحكمون بيننا)[2].

وبذلك سبقني رحمه الله، لكني علمت من ذلك أني على طريقة راشدة في هذا التمني الجاد، وأن تلك السابقة إنما هي (شهادة) تُثني عن أصالة رغبتي وطريقتي الإبداعية في تطوير آفاق الحياة في الجنان.

---

(١) (٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٩٥/ ١١٨

● ومُرادنا إيجاب كُلّه، ولكن كسولاً يريد أن ينحرف به إلى سلب، فيزعم أنه سوف ينتظر الجنة ليقرأ العلم الشرعي ويجوب ويطرق مجالس الأئمة، تماشياً مع هذه المنهجية الإبداعية وتصديقاً لها، وقد أخطأ وتوهَّم وكبح به ظنهُ وتأويله، فإن تعلّمه في الدنيا حدود الحلال والحرام، وصفاء العقيدة له من البدع، هو الذي يعصمه ويُدخله الجنة، ولا تكفيه هِمّته والنوايا إن لم يعضدها صواب المذهب، فلا تأجيل للعلم، بل هو واجب فوري، وعلوم أيام الجنة تحليق، ومُتعة، وغرام، وشغل خير، وجنس من النعيم المعنوي الذي يعلو على النعيم المادي.

● فليحفظ هُمامٌ إيجاب الإبداع... وليحذر التضبيع.□□

٨ سِهام المُحارب

" قصةُ ليلةِ حِلفٍ بين حاضرٍ وبادٍ ...

تكشف الخلجات النفسية التي تقود حركة الحياة "

" قصة بأسلوب جديد ... لن يفهم القارئ مغزاها

حتى ينحدر مع تيّارها ... إلى نهايتها الراجية "

□□ سيّارة الدفع الرباعي تنهب الأرض نهبا ، في أرض مستوية بين جبال جرداء جنوب الرُّبع الخالي من جزيرة العَرَب ، وسائقها الماهر أبو حذيفة "أسامة الخفاجي" سكرتير "الراشد" يتطلع فاحصاً ما حوله ، رانياً نحو القِمَم ، يريد أن يفهم "حركة الحياة" كما أوصاه أستاذه ، من خلال السياحة الواعية ، والإيغال في البراري ، والمغامرة ، وإبداع التعامل النفسي الرفيع مع خلْق الله ، من صخرة ونبتةٍ وظبيٍ يُنبيه خبرَ الفِطرة والأصالة البريئة من تلوثٍ وتصنُّع وتكلّف ، وإذ هو في تسبيحه المستوعب يلمح شبح رجلٍ يتربع على صخرة كبيرة ، فيخفض سرعته لئلا يؤذي الرجل بغبار سيارته ، مستحضراً على الفور وصايا أستاذه ، فلما أن قارب الصخرة وأشار بالسلام : إذا به يلحظ برُغمَ البُعد صورة "صناعة الحياة" والباب المفتوح القديم المطل على ساحة الحضارة ، فضغط على الكابح فورا ، ووقف غيرَ مُصدِّق ..

□ أأنا واهمٌ ، أم في حُلم ، أم في حقيقة ؟

في الصحراء ، بين جبال عُمان ... تُصنع الحياة ! !

من هذا الذي يُنافسني في الخير في أرض الأحقاف يقتفي آثار هُود ؟

• السلام عليكم أيها البدوي الذي يصنع الحياة !

• وعلى تلميذ الراشد السلام ! تعال استرح .

• الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، أأنتَ من جنّ عُمان الذين نسمع عنهم، أم أنت ساحر ؟ كيف عرفتني ؟

□ وهنا يتراجع أسامة إلى الوراء بحذر ، ويستولي عليه خوف شديد، وتتسارع نبضات قلبه ، ويعود إلى مقعد سيارته لينجو من المأزق .. فيبتسم البدوي .

• عُذ بالله ، لا تخف ، قل بسم الله واقترب ، أنا إنسي مثلك ، وأنا أخوك في الدعوة إلى الله ، وشريكك في فهم مُراد الراشد !

• بسم الله ، لكن كيف عرفتني ؟

• عرفتك بالذوقيات التي تلتزمها ! !

• كيف ؟ وما هي ؟

• حين اقتربت بسيارتك أبطأتَ جداً ،لئلا يؤذيني الغبار المتطاير، وذلك ذوق رفيع منقرض لا يفعله غير سائق قرأ رسائل العين والتقرير الميداني وتلمذ للراشد!

□ فهدأ أسامة ، واطمأن ، وشرع يتعوذ بالله ، وينزل ، ويتقدم ، ويقوم له البدوي مُصافحا ، وكأن صداقة عريقة تربطهما ، أو بينهما وشائج أُخُوّةٍ كأنها مِصرية في عمقها .

• وما أخبار الراشد في محنته العراقية ؟ وكيف هو ؟

• مسكين ، قد أرهقه التعب والقلق وقِلّة من يفهمه ، وقد أطلقَ المبتدأ ، وطال انتظاره للخَبر ! !

• لا حول ولا قوة إلا بالله .

• وهو يُحدثنا اليوم في مجالسه في مركز المسار بنبأ النُبوّات التي خذلتها أقوامها، كأنه يعني الإسقاط على حاله، وكأنه مؤذنٌ قد صَحِلَ صوته من علو النبرة والمدود ، ثم لا يجد في صف الصلاة كثير عدد ، مع خللٍ واعوجاج .

• آمنتُ بالله .. أفما تكون منك تسلية له ؟

• نعم .. سلوته في الجهاد العراقي ، وبه ما زال مرفوع الرأس ، وذبذبات الأمل تغريه .

• الحمد لله .. ذلك الظن به .

• دعني أروي لك نادرة من الفكاهة حدثني بها أبو نور بالسند العالي عن أبي احمد عن نبيلٍ ببغداد قال : أثقلتني الهموم ومناظر القتول ومحنة أهل السُنة والجماعة في العراق ، وأوهام خوارج العراق الجُدد الذين يتهمون بالكفر مَن يتصدى لرفد الجهاد بمشاركة سياسية تقلّل الشرور ولعلهم يقتلونه عدواناً وجهلاً بالتخطيط والمناورة ، فخرجتُ إلى شاطئ دجلة لعلّ نسياناً يعتريني فيلهيني عن الآلام ساعة ، فوجدت قارورة ، ففتحتها ، فخرج عفريتٌ من الجنّ .

• يعني مثلي ، هو ابن عمي .

□ فضحكا ، حتى أثملتْهما رقائق الانبساط وزوال الكُلفة ، كأنهما تداولا علاقات القلوب أباً عن جَدّ .

• قال النبيل : فقال الجنّي : لبيك ، اطلبْ ، عبدٌ بين يديك ! !

• سئمتُ عيشَ العراق ، حيث الطائفية والعدوان بعد دهرٍ من الحروب والحصار ، فاصنع لي أيها الجِنّي جِسراً أعبرُ عليه من بغداد إلى الصين ، فلربما أجد هناك أمناً وسَعة !

• نعم ؟ تورطتُ فقلتُ لك : اطلب ما شئتَ !؟ لكن يُفهم الكلام بالإنصاف، هذا شيءٌ صعب ، فاطلب ما هو أخفّ عليّ .

• طيب : اجمع لي عشرة من أهل العراق عُقلاء أشاورهم في مستقبل العراق ، واسبق بهم أصحاب الدراسات في استشراف المستقبل .

• قال الجني : أفندم ، مولاي : كم طابقاً تريدُ جسرك إلى الصين ؟

□ فضحك جنّي عُمان حتى استلقى على قفاه .

فقال أسامة :

• ضحكتك تذكرني بسماحة أهل العلم ، فقد روى لي الراشد قال : كنتُ جالساً في ظل حديقة دار شيخ الكُتُبيين زهير الشاويش بالأشرفية ببيروت أحاور شيخ السلفية محمد ناصر الدين الألباني ، وفي الحديقة مُهرٌ أهداه مُحبٌ لزهير ، فأراد رجل كلّفه زهير أن يروّضه ، فجمح به وألقاه ، فسقط وتكشّف ، فضحك الألباني ، حتى استلقى على قفاه ، ويريد لنفسه أن تهدأ فلا يستطيع.

• نعم ، هكذا أهل العلم ، ولستُ مع العُبوس .

• عفواً : أنساني الفرح بلقائك عن السؤال عن اسمك .

• أنا محارب بن قيس الجِمْيَري .

• وأنا أسامة الخفاجي ، سكرتير الراشد .

• سُبحان الله : إن خفاجة أولاد عم عُبادة الذين منهم بنو عِزّ الذين منهم الراشد ، وترجعون إلى قيس عيلان ثمّ إلى مُضر ، وهناك من ينسبني قيسياً ، فنكون الثلاثة تجمعنا القربى .

• سبحان الله ، وتلك وشيجة تؤكد وشائج الإيمان الذي يجمعنا .

• لكن : ما الذي جاء بك إلى هذا القفر البعيد ؟

• روح المغامرة ، وابتغاء تقوية النفس ، وتحريك الإبداع ، وتنمية العقل، وإتاحة التسبيح للقلب إذا رأى غرائب الخلق ، وأنا تلميذ الراشد ، وهو يحثنا على السياحة المنهجية الواعية ، ويروي لنا فقه الرازي في تحبيذها ، فقطعتُ سبعَ صحراوات بسيارتي هذه ذات الدفع الرُباعي ، وكأنّ نصف نجاحي قد تحقق برؤيتك ، وأنا في طريقي إلى " صلالة " ثم إلى اليمن ، ومنها أصعد إلى مكة موسم الحج ، ثم أرجع إلى العراق أقصّ لهم القصص .

• ما شاء الله ، رَبّ تَمّم بكل خير .

• سياحتي ليست غريبة ، إنما الغرابة في أمرك : أن تكون في الصحراء ، بين الجبال ، وحيدا .

• كلا ، لستُ فريداً ، بل معي أهلي وعيالي خلف ذاك الجبل ، وأنا مهندس ، ومتخرج من أميركا ، وأعرف دروب صناعة الحياة ، ونَبَضات حركتها ، وفقه الراشد هو الذي أخرجني إلى هنا ، كما أخرجك ، وأنا نذيرٌ للأمة ، لكن من خلال منظري الصامت ، لعلّ جيل المسلمين يَقْتدي ! !

• كيف رحمك الله ؟

• مَرّةً قال لنا الراشد في دروسه أنه لما كان صبياً : كان له شقيق يضع بين يديه مجلة "الأنصار" لعبد القادر حمزة نقيب الصحفيين بمصر ، قبل ستين سنة، ويطلب منه أن يطالعها ، وهو والد كريمان حمزة الإعلامية المعروفة في التلفزيون المصري والأولى التي ارتدت الحجاب في الوسط الإعلامي ، وقد رَصَدَ حمزةُ نفسَه عبر مجلته للنِذارة من خطر التغريب الغازي ، في الفكر والأخلاق والأذواق ، ورأى العصمة من ذلك إنما تكمن في العودة إلى البداوة والأصالة من أجل الحفاظ على مقوماتنا الشخصية ، وأنا قد درستُ في أميركا ، ورأيتُ تفاهة تربيتها وفكرها المادي ، فندبتُ نفسي لتحقيق أحلام حمزة ، واخترتُ الصحراء والصيد والقوسَ والنبال ، ترويجاً لأسلوب البداوة الأول ، وتصويراً للنقاء ، والمبالغة في البُعد عن التلوث بماديات الغرب ، واليوم إنما تريد أميركا من استعمارها للعراق أن تنشر فكرها ومناهجها التربوية قبل أن تكون طامعة بالنفط الذي تركته وراءك في العراق والخليج ، وأنا أريد أن أقوم بتفهيم المسلمين أشكال هذا الخطر .

• لكن يا أخي الهمام : هذا شعور طيب أظنه يتمثل بآلياتٍ خاطئة ، فإن الراشد واضح في دعوته إلى التربية من خلال دواليب الصناعة وصليل حديدها ، ووزّع الدعاة على ثنايا صناعة الحياة وثغراتها ، فلم يذكر فيها البداوة ، وآخر فقهه في رؤاه التخطيطية يدعو إلى التنمية الشاملة وجعلها شُغلاً دعوياً ، فكيف استنبطت الرجعة إلى البداوة ، وكيف اجتهدت خلاف أصول الاجتهاد ، ولو صرنا في البادية فمَن يصاول العلمانية في الحواضر ؟ ومن يُبشر وينذر في ساحة السياسة ووراء الأروقة ؟

• بل أنا على هَدي الراشد وفهمه ، وأنا تابعٌ وفيّ ، وقد ذهبتَ بعيداً عن فهم مُرادي وأسلوبي وإبداعي ! بل سَندي يمر بابن الطلب الشنقيطي الذي أحيا سُنن الشمّاخ بن ضرار في الصيد بالقوس ! !

• كيف تتوافق مع الراشد وأنتَ على هذا النحو ؟

• لستُ أدعو إلى بداوة الدعاة ، لكني أرى أن تتمثل البداوة والصيد ورجفات الأقواس ورشقات السهام في شخص من الدعاة ، يجمع معاني الأصالة ، ويقوم منظره شاخصاً واعظاً مربياً ، والغزلان من حوله مضرّجات بدمائها ، فينتصب الشاهد الذاتي الرافض للميوعة والتطبيع ومخادعات السلام ، وتلك صنعة من فنون صناعة الحياة لابدّ أن يسوق لها القدرُ أصيلا، فكنتُ أنا السابق ، أربّي بمنظري ، كما كان ذاك التابعي القديم الذي بنى صورة حصنٍ صغيرٍ وربطَ عنده فرسه ولبسَ درعه : يُحيي معنى الجهاد ويصنع دعاية للغزو ، فكان خطاً خلفياً لإسناد الخطوط الأمامية .

• معنىً عظيم في ربطِ الخَلف بالسلف ، والحاضر بالماضي ، ويدع المبدعَ يستمد من التراث ويبقى أصيلاً إذ هو يتجول في ميادين العلوم ، ويدرس فيزياء الكم ودقائق الذرّة بنفسية الشمّاخ الشامخة .. عظيم .

• الحمد لله أنك أسرعتَ فهمي .

• تربية الراشد .

• صدقت ، وإني لفي شوقٍ إليه .

• ولكن ما هذا العود الذي في يدك ؟

• غصنٌ من شجرة نَبْعٍ استجودته في هذا الجبل ، أريد أن أبري منه قوساً جديدة ونبالا ، فإن عيالي جياع ، وها هنا وراء ذلك الجبل غدير ماء ترده ظباء المها ، ولي ركن أتسلطُ منه عليها ، فما يخطؤها سَهمٌ إن شاء الله .

• ما شاء الله ، واقبل مني هذا الهاتف النقّال هدية ، فأنا أحمله احتياطاً ، وعليه رقم هاتفي الآخر ، فاتصل بي ، وليدم تشاورنا عبر الهواتف ، واسمح لي أن أغادر إلى صلالة فإني على موعد هناك .

• بل اصحبني إلى خيمتي لتناول العشاء .

• شكراً ، فالموعد يشغل بالي .

• إذاً إنّ صلالة على بُعد ساعة واحدة،وإنك تصلها إن شاء الله قبل الغروب.

□ فتعانقا ، وتواصيا ، وانطلق أسامة جنوبا .

وجلسَ مُحاربٌ على صخرته يفكر في هذا اللقاء القَدَري ، وإذا به يجد نفسَه أمضى عزماً وأعمق إصراراً على أن يقوم شاخصاً بين دعاة العالم يتجرد لمهمته الإبداعية في إحياء فقه البداوة وقنص المها ، وكأن الله ساق له من أرض العراق من يشهد لصواب مذهبه وتأويله ، فهو يعرف ما يُريد ، وغايته واضحة ، ومبتغاه أن يُحرك الحياة بذبذبات أوتار الأقواس ، على أنغام أزيز ريش السهام حين تهتز قاصدة أهدافها ، وإنما ذلك تمهيد لعلو التمني ، وإقرار لصفاء المعتقَد ، وإظهار لتجريد الوجهة ، وتبسيط للوسيلة ، ورجوع إلى الفطرة ، ونقض لغرور العولمة وتبخترها ، وبراءة وطهارة من غبار الاختلاط بكافر ، ومفاصلة مع دعيٍّ وكاذب ، ثم هي خلوة تتيح الفكر الحر ، واستقلال الموقف .

وانطلاقاً من هذه الخلجات بدأ ينحت قوسه من غصن النبع الذي اختاره، وقد مَلَك عليه القوسُ جميعَ نفسه واهتمامه ، فهاجت أشواقه ، ونَـمَتْ حاسة العِزّة فيه ، وامتلأ ثقة ، واعتداداً ، وأيقن أنه يملك المستقبل ، لأنه مع آلة الذود تُصادِقُه وتُصدِّقُه، وارتفعت وتيرة تصاعد العزم لديه، فجرَت على لسانه أبيات شعرٍ لم يصبر أن ينفردَ بها،فضغط على أزرار هاتفه ليتصل أول اتصال بأسامة ..

• أخي ، ما عُدتُ أصبر على حبس المعاني في صدري ، فاسمع ترانيمي ..

يـا رَبّ سـدِّدني لـنـحتِ قـوسـي

فـإنـهـا مـن لَـذَّتـي لـنـفـسي

وانفع بـقـوسـي وَلَـدي وعِـرْسي

أنحـتُ صَـفـراءَ كـلونِ الوَرْسِ

كَبْداء ليسَت كالقِسِيِّ النُّكسِ

• الله .. لقد هززتَ أوتار قلبي ، وأثرتَ كوامنَ عقلـي ، وأيقظـتَ في داخلـي فقهاً تعاهدنا عليه يحدونا نحو الاستعداد ، وقياس موقعنـا مـن المحيط بـالقوس ، وإنك أيها الميمون لعلى صراط مستقيم ، فـإن الانحنـاء وشـدّ الوَتَـر قانونـان في توليد زخم الحركة وحفظ نبضها في المسار العدل ، وإنـا لنمـضي ، فـإذا وجـدنا مانعاً معترضاً : التففنا ، واستدرنا بزاوية الرُبـع والثلـث مـن أجـل أن تـستأنف الأرباع والأثلاث توغلها مستهدية بفقه الدائرة المنحنية الحانية الحريصة علـى مـا تحوز في داخل محيطها ، وإنك يا محارب قد استرسلتَ معَ الفطرة ، وأحييت فقـه الأقواس ، لتتيح لنا فهم المعادلة وجذورها الرياضية ، فاثبت على هذا الديـدن ، وهذا تلقين لنا ، وإقرار منك ، وتحفيز ، وتوكيـد ، ودفـع في طريـق فهـم حركـة الحياة عبر إسقاط قوانينها الكلية على ظواهرها الجزئيـة ، واسـتنباط المعـاني مـن خلال رؤية العلاقـات بـين الأجـزاء ، ونحتـك لعـود النبـع هـو الأصـل لحـشد الإلقاءات النفسية الجياشة في قلب حرّ ينحت منطـق الاسـتبداد بـدلائل الحريـة المندمجة بنزعة القوة .

□ وينتشي " محارب " ، وتأخذه هزة ما عـرف مثلـها مـن قبـل ، ولا ذاقهـا ولا توقعها ، وامتلأ يقيناً أنه على الدرب ، وتُحملُه نشوتـه على أن يمد يده إلى بقايـا عود النبع ، فبرى منها بشفرته خمسة أسـهم بديعـة أعجبتـه ، وهَمَس جمالُهـا في

سمعه بمعنى ردفته المعاني ، وغرست رشاقتها في قلبه نبعاً يانعاً يمنحه نقلةً واثقة نحو المستقبل ، فتزاحمت القوافي على فيه ، والتقط هاتفه ..

• أخي .. لو كنتَ معي لرأيتَ هيبة أسهمٍ خمسةٍ اقترفَتْها أناملي ، فاسمعْ وصفها وقولي فيها ..

هُـنَّ وربِّي : أسـهمٌ حِسانُ

يَلَذُّ للرّمي بها .. البنـانُ

كأنما قَوّمها ... مـيـزانُ

فأبشروا بالخِصبِ يا صِبيانُ

• أحسنت ، زادك الله فصاحة ..إني استطيع تمييز ما يختلج في صدرك ..

إنها أثقال الوعي ، وضرائب الفهم ..ستُقلقُكَ خواطرك وتنفضك ..

لكنها ترسو بك إلى مُستقَرّ ..

إنها حيصة إبداع الأسير .. حين يبحث عن مَخرَج ..

وآمال الكسير .. حين يحتاج الركض ..وسَعة الحثّ .. إزاء ضيق اللبث ..

ونحن ندري صفةَ عملنا ... ونُداري ..

خُططٌ حِسان ... صاغها فِكرٌ منهجي ..ورَمياتٌ نـفسية .. تنطلق تـتْرى ..

ذاتُ أساليب .. نوّعتها الألوان ..وصقلتها تجارب .. بعد إذ أحكمها ميزان ..

لذلك ... لمعت البشائر ..فإن المستقبل الواعد وليد صواب البداية ..

□ فكاد قلبُ "محارب" أن يرفرفَ مع هذه الإشارات ، واستبدّ به زهو ، فحمَلَ أقواسه ، واتخذ له موقعاً كميناً مستوراً في سفح الجبل عند موضع ورد ظباء المها، حتى أرخى الليل ستوره وكان الظلام ، وساد السكون ، فبدأ وقع الحوافر يطرق سَمعه ، وكتم أنفاسه ، تمكيناً لها أن تطمئن وتأمن ، وهو من شدة العَتَمَة لا يرى حتى أشباحهن ، إنما هو الصوتُ فقط ، وجَلَبةٌ خفيفة.

شدّ محارب الوتَر ، وسمّى بسم الله ، وأطلق ..

فكان الخفيف أفخمَ نَغمٍ لديه .. ومدّ عُنُقَه يتتبع ..

فأورى سهمُه في أحجار الصوّان نارا ..

فكانت الصدمة في دواخله أعتى من صدمة النصل بالحَجَر ..

ربّاه .. أخطأت الهدف وأنا الماهر وحليفي الإتقان ..

• : أسامة .. اسمعني .. طاشَ النَبْلُ الأول فلم أُصب ..

أسامة .. ماذا ترى .. ذهب خُمسُ ترتيبي ..

تبدّد خُمس أملي .. اضطربتْ معنويتي ..

أعـوذ بالمُهيـمنِ ... الرحمنِ

من نكدِ الجدِّ مع الحـرمـانِ

ما لي رأيتُ السهمَ في الصـوّانِ

يُوري شَرار النارِ كالعـقيـانِ

أَخلفَ ظنّي .. ورَجا الصبيـانِ

أفتني يا أسامة .. خسرت جولتي الأولى ..

إنه نَكَدُ الحظّ وقَدَر الحرمان .. أم ماذا ؟

• كن حَسَنَ الظنِّ بالله يا محارب ..لستَ الأوحدَ يواجه الحَيْرة ..

نحن بالعراق أحكمناها ، وظننا أننا استوفينا ..

فجاءت رياح .. مزّقت الشراع ..

ولئن كنتَ رميتَ فأوريتَ ناراً فيها سَلوة .. وتومي إلى ضياء ..

إنّا رَمينا .. ودَقّقنا الحساب .. فارتدّ ظلاما .. ينشر الأحزان ..

وإن كنت في حَيْرة .. فنحنُ في متاهة ..

سفينتنا فيها سَبعةُ ربابنة .. يأكلهم القرش الكوسج الأسود ، وهـم في غفلةٍ مُعرضون ..

وفي آفاقنا جيلٌ هائم .. وقاعدةٌ عائمةٌ قاعدة تترسب .. تلوكُ القول .. وتخذل المتصدي ..

إنما نحن رجال الوَسَط .. نأبى اليأس .. ونصاول .. فكن معنا على درب المثابرة .. وحاول ..

□ فيستأنف محارب .. ويُعاند الإحباط الطارئ ، وينتظر ورود قطيع آخر من المها بعد أن أجفلَ سَهمُه البكرُ أولَ قطيع ، حتى إذا كان الهدوء كان وقع الحوافر يزداد ..

وإذ هُنّ يَكرِضْنَ : رَنّ سهمُه الثاني ..

وإذا بالقدحة توزّع الشرر ..وإذا بقلب محارب يتوزع ..

• يا أسامة .. أهي خَيبةٌ تظلمني ثانية فتقدح الصَّوّان ؟

أم هو ذنبٌ وراء الإخفاق ؟ لست أدري ! !

أعوذ بالرحمن من شرّ القَدَرْ ! !

أأمْغِطُ السهمَ لإرهاق الضرر ؟

أم ذاك من سوء احتمالٍ ونظرْ ؟

أم ليس يُغني حَذَرٌ عند قَدَرْ ؟

يا أسامة .. قد استوفيتُ استفتاء نظرية الاحتمال وأحطتُ بخبر استشراف المستقبل ، واكتلتُ من النظر التخطيطي ، أفهو القَدَر اغلب ؟ أم تلزمني سرعة الرشق بالسهم والمبالغة في الإمغاط ؟

اجبني .. أو امزقْ ثوبي .. ! !

• كنْ رابط الجاش وارفع راية الأملِ ... قالها الوليد ...

رويدك .. فإنّ الحُسنى توشك أن تُنيلَ صاحِبَها إذا اتأدْ .. !

نحن في العراق قد استأنفنا بَعدَ العثرة ..

واتهمنا أنفسنا .. واستغفرنا .. وأبنا ..

وكان في الأول مِنّا تأويلٌ ... فرجعنا إلى الظاهرية ..

واعترانا ذهول .. فالتزمْنا التحديد ...

وقَبلُ ارتجلنا .. فخرجنا إلى تخطيط .. من بعد ..

وحسُنت أخلاقنا .. وتفانَينا .. وأنكرنا ذواتنا ..

لكنّ أهلنا كذّبونا .. وخذلونا .. ولاكت ألسنتهم الفِرية بعد الفِرية ..

ربّاهم الظالم على خنوع .. واستخفهم فأطاعوه وقلّدوا ظُلْمَه .. فطاشوا في الولاء ..

لكننا نظرْنا ، فكان تشخيصنا للأمر : أنهم يحتاجون تربية ..

فأهدرنا سُمعتنا .. وحقوقَنا ، وبدأنا نصطفي ... ونُربّي الناس .. يُصلّون خلفَنا ... ويصوّتون لغيرنا ..

لكننا نوينا الصبر .. لأننا نريد الجنة ، وسنبقى نستخلص من ذرياتهم مَن هو أنقى منهم .. وأقرب إلى الإنصاف ..فاصبر .. وصاول ..

□ ويصبر محارب .. فإنها ليست إلا ساعة من ظلام .. ثم أصداء الحوافر تدفع أصابع يُمناه ليمسك بالسهم الثالث ، واستمكن وأرسل ، فإذا بقَدْحةٍ وشررٍ يُعيد شرّ الإحباط ..

• يا أسامة .. أين أنت ؟ أما زِلتَ في عُمان ؟

تركتني وحيداً ... وتزعم أنك تجمع أجزاء حركة الحياة ..

عالج سكوني .. وسكوتي .. قبل جَسّ النَّبَضات .. ! يا أسامة ..

ما بالُ سَهمي يُظهِرُ الحُباحِبا ؟

قد كنتُ أرجو أن يكونَ صائبا

إذا أمكنَ الظبيُ وأبدى جانبا

فصار رأيي فيه رأياً كاذبا ! !

يا أسامة .. سل أبناءك .. أيجدون في الفطرة التي هم عليها تفسيراً بعد إذ خَذلْنا وعيُك ! ! وقد زعم الراشد .. وزعم .. فتابعناه.. أفما يكون على وَهْم ؟ أخبرني .. وإلا كفرتُ بالبداوة .. وأذهبُ أتطاول في البُنيان !!

• كلا يا حبيبي .. بل أنتَ المؤمن يا محارب ..

وليسَ مِن وَهم .. لكنها وطأة الهمّ ..

مُذ أتانا ونادى في مسجد أبي حنيفة ... كان الرأي صادقا .. !

لكنها هجرةُ الناس خذلتنا لـمّا أرهقهم الكيدُ الشعوبي ..

فلا تتطاول يا أخي .. بل امتدّ على سُنَن التـنمية والرؤى الجديدة ..

وأما انحراف نُبلك .. فلعلّه بسبب شدة الظلام ..

وما أرى اتهام نفسك .. فإنك على ذخيرة من الـدين والأخـلاق والمروءة...

ولي شاهدٌ من نُبلك .... اسمع يا أخي ..

الناس على وعي .. وكل لسان يلوك أمر السياسة ، لكنه الإيمان أصبح عُرفياً هامشياً لا يستمد من موازين القرآن ..

إنها تربية الفضائيات طغت على تربية المساجد ..الناس تخذل المصلحين ..

الناس تُهاجر ، وتـترك بغداد للشعوبية ..

وعاةً .. لكن لا يريدون التضحية .. وهالهم القتل ..

لولا النَفَر ، من مجاهد وحارس صامد أمين ..

فاصبر ... وتأوّل خيراً ..

وتعال أصارحك .. لماذا تُجفلك قَدحةُ النصل ؟

أنت تراها شَرَراً ..

وأنا أراها .. لمعةً .. وومضةً .. ووَعداً ... وبشرى !

□ ويتوب محاربٌ .. إنه كان أوّابا ..

ويُرسل سَهمَه الرابع .. لكنها .. القَدحة ! ...... واهاً .. واها ..

إني لشؤمي ، وشقائي ونَـكَدْ

قدْ شفَّ مِني ما أرى حَرُّ الكبِدْ

أخْلَفَ ما أرجُـــو لأهلي وولدْ

ويريد أن يُبلّغها لأسامة ويطلب نصيحته ، ولكن يبدو أن أسامة كان قد غادر صلالة نحو اليَمَن وانقطع الاتصال وتجاوز مجال التغطية والبثّ ..

وتحدثه نفسه ، فيجد رصيداً من مواعظ أسامة يحمله على أن يجرّب سهمه الأخير الخامس ..

هل بقيَ أمري مُعلقاً بهذا العود النحيف الحائر الذي يزيده استفهامي نحتاً ويقعد به إحباطي ..

لأرسله يلحق بإخوانه ..

فإن كان ... وإلا فإنّ يأساً جديداً لن يجدَ محلاً له في قلبي فارغاً محجوزاً ينتظره ... لقد انتهيت .. فليكن ما يكن ..

ومضى السهم .. ورَنِينُ مروقه يخرق السكون ..

الله .. الله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. هي القدحة مرة خامسة ..

ويتناول هاتفه .. لكنه الصمت ..

وحيدٌ مع الأحزان ... ولا سلوان ..

ويكلم نفسَه : تسافر الآن يا أسامة وأنا المحتاجُ إليك .. أهكذا الأقدار حين تجتمع وتتراكم وتحاصر الحيران ؟ ؟

أتجبهُني نكبتان ؟ نكبةُ ضغط العدو عليّ ، ونكبةُ غياب الواعظ وكيل الفِكر وأمين القصص ! !

لك الله يا قلبي الحار .. لك الله يا فؤادي الملذوع ..

أبَعدَ خمسٍ قد حفظتُ عَدّها

أحْمِلُ قوسي وأُريدُ رَدّها

أخزى إلهي لِيْنَها وشَدّها

واللهِ لا تَسلمُ عندي بَعدَها

ولا أُرَجّي ما حَيِيتُ .. رِفْدَها

□ ويتصاعد الغضبُ في نفس المحارب ، فيقوم واقفاً في الظلام ، وقد نفرت الظباء فلا يسمع إلا الأصداء المتناقصة من وقع حوافرها ، وقد خسرَ كلّ شيء

من عتاده وأمله ، وأصبح في موقف حرج أمام عياله ، وأمام أسامة لو درى ، وأمام الأدب ، وأمام التاريخ ..

ثم انتابته حالة ضياع ..

فطفق يصيح وينادي بأعلى صوته .. ويلي .. ويلي ...

يا ظباءُ لا تعودي .. كوني حُرّة ومُوتي عِطاشا ..

بل يا ظباءُ عودي .. فلن تَجِدي رامياً ماهراً ..

لا تخافي .. أنا الفاشلُ التائه ..إشربي .. أنا السُّلميُ الجبان ..

□ وقبل أن تتلاشى أصداء صراخه بين الجبال : رفع قوسه بشماله ، وهوى به على الصخرة ، فكسَرَه وهشّمَه ، فاستحالَ شظايا .

وجلسَ مُحاربٌ سانداً ظهره إلى الصخرة ، والوساوس تسبح به إلى أفقٍ بعيد ، حتى استرخى ، فأخذته إغفاءة أطالها تَعَب الانهيار ، فلم يوقظه غير تغريد طيرٍ قُبيل الشروق ، فقام مُسرعاً ، يريد الوضوء من غدير الظباء ليدرك الصلاة ..

• الله ... الله أكبر ... الله أكبر ...ما هذا .. ؟ آمنت .. آمنت .. !

خمسٌ من المها مضرّجاتٍ بدمائها قد اخترقتها سهامي .. أهذه قوةُ ساعدي قوّاها الله فأنـفذَتْ .. ؟

إنها رميات موفقات من قوسٍ صادق ... فصدّقها الله ..

لِزَخمها .. وإمغاطها .. وسرعتها : اخترقتْ رقاب المها ، وظهرت من جانبها الآخر ... فضربتِ الحَجَر .. فكانت القَدَحات ..

قَدحةٌ .... بعد ذبحة ..

تلك هي حركة الحياة إذاً حين يتولاها الله بعد نشأتها الأولى ، فتكون البَركة ..

بسم الله .. بسم الله .. بسم الله ... بسم الله ... بسم الله .... والله أكبر .

□ ويعود محارب إلى صخرته ، ويلتقط هاتفه ، ليخبر أسامة .

• نعم يا محارب ، الآن بدأ هاتفي يستلم ، وأنا داخل حدود اليمن ، لكن إياك والشكوى .. يائسٌ يستشير مُحبَطاً .. !

• كلا ، كلا يا أسامة .. إنها البُشرى إذ أنت في أطراف الـمُكَلاّ ..

• بشّركَ الله بخير ..

• لقد رميتُ بعدك ببقية أسهمي في الظلام ، فأذهلتني القدحات ، فتمرّدَتْ نفسي وطاشت ، وأردت إخبارك فوجدتك في طريق السَفر بعيداً عن التغطية ، حتى ملكني اليأس ، فكسرتُ قوسي ، فلما كان الإسفار وجدتُ كلَّ سِهامي نافذة ، وخمساً من المها السِمان مضرجات بحمد الله ..

• ما شاء الله .. ما شاء الله .. عاشت يدك لتبري أقواساً غيرها وتقنص المزيد.. وتلك قصةٌ حَريٌّ بفقه الدعوة أن يدونها ..

• لكني أنا الآن التائب الندمان .

ندمتُ ندامةً : لو أنّ نفسي

تطاوعني .. إذاً لبَترتُ خَمسِي

تبيّنَ لي سَداجَ الرأي مِنّي

لعَمْرُ اللهِ حين كسرتُ قوْسي !! [١]

• لكن من التجربة نتعلم ، وبعد عثرة الخطأ تكون نهضةُ الصواب .. وأريد أن اروي لك بقيةً من فقه الراشد ..

• كلا يا أسامة .. بل أنا الآن الواعظ، وقد صنعتُ الحياة ومارستُ ، ورجعتُ بنبأ يقين.. وأريد أن أبلغك رسالة إلى أهل العراق..

لقد صَدَقَتْ فِراستي ، فتعلمتُ من صَنعة البداوة ورياضة القنص أطرافاً من أخبار حركة الحياة ما كان لي أن أتلقنها لو لم يكن بشمالي قوسي وأسهمي بيميني ..

أرجع يا أسامة من اليمن إلى بغداد برسالتي ..

○ قل لأهل بغداد أن محارب القيسي وَجَد قولَ الراشد حقّاً ، فحالفَ الخفاجي، وخالفَ دُعاة الهزيمة ..

○ قل لهم : إن محارباً هو البائن الكائن ..

بائنٌ عنهم بانزوائه في الصحراء يُعيد سُنَنَ الأوتار ، ويحاول إحياء فقه البداوة الأصيل ، نقضاً للعولمة ، وتمثيلاً للمعنى العتيد بين العالمين .

لكنه كائن معهم بقلبه وروحه وفكره ، يرتاد لهم ، ويُثري الفقه القيادي ..

○ قُل لهم .. هو الغائب الحاضر ..

وأنتَ حَضري .. وأنا بَدَويٌ .. لكنّ الدعوة صهرتْ شخصيتَينا معاً فامتزجَتا، وصيغت الأصالة مُندمجةً مع فقه التخطيط الطارِف الجديد ..

○ قُل لهم : إنّ السهمَ جِرمٌ صغير ، إنما فيه انطوى العالَمُ الأكبرُ ..

○ قل لأهل بغداد وقُرى دجلة والفرات : إنّ سهامَكم نافذة ، وقد قَدَحت بعد أن ذبحت، لكن التعتيم الإعلامي هو الذي يُغطّي الحقيقة والخبر.

○ قُل لهم : لا يَستَفِزَّنكم الذين لا يوقنون ..

إن سهامكم الأولى أثخنتْ في جيش الاحتلال الأميركي ..

وأنتم حلقة الوصل الحاضر في سَنَد الجهاد العالي بين سلفٍ كريم .. وجيلٍ مستقبلي يواصل ..

وإنّ سهامكم الأخرى هي التي ستفهمها الشعوبية ..

○ قل لأهل العراق :

إنّ ربّاً عزيزاً ألهَمَ مُحارباً البَدوي نحتَ وبرْيَ الأقواس والسهام ، وهو يريد أن ينقلها ... للأبرياء ..

○ وقل لدعاة الإسلام في العراق :

أنتم تفتحون الفتوح ، ولكنَّ النتائجَ تتأخر ، وطريق الجهادِ طويل ، والسياسةُ جزءٌ منه ، فلا يحملنكم تكذيب الجاهل والمستعجِل على أن تركنوا ليأسٍ وإحباط، فإنكم تتخذون من التخطيط الشمولي وسيلة ، ومن الرؤية الإستراتيجية سَلوة ، والبناءُ من شأنه احتياجُ الوقت ، والهدمُ سهل ، والإرجاف مفضوح ، وإنّ يداً تتقدم إليكم بغدرٍ واغتيالٍ لهي يدٌ توشكُ أن تُشَل ، فإنكم على طريق الهداية ، وقد جمعتم بين الحُسنيين والجهادَين : جهادَ الرميِّ .. وجهادَ الرأيِّ والحُجَّة والسياسة والمنافسة والتدبير والكلمة الصادقة في يوم الكذب ، والشعار المستقل في ساحة الاختلاط ..

○ ويا أسامة .. قُل للجميع .. إن الشهادةَ منحة ..

وإنّ سقوط "عايد جبر العيساوي" هو علامة الصعود □□□

---

(١) أصل القصة في لسان العرب ٣ / ٢٥٨